غاردينيا

الفن: رواية.

العنوان: غاردينيا.

تأليف: منيف الهلالي.

الصفحات: (١٩٦صفحة).

النَّاشر: عناوين.

الطبعة: الأولى ١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م.

خط الغلاف: محمد صعصعة.

777 966 145 775 924 328

منيف الهلالي

غاردينيا

رواية

سلطان الدعوة ورماد الوشاية

الإهداء

إلى مداري الهائل وقد غيبته إرادة السماء؛ لتثقل كاهلي حزنا "أبي".

رغم قسوة الأيام وجفوة الأهل والأصدقاء والأحبة، ما زلت متشبثاً بالحياة.. أحلم.. أعيش.. أبتكر مساحات حرة، أمارس فيها طقوس التفاؤل بجميل الماضي، وأرسمني قطرة تدق نافذة الذكريات.

إن للأيام رحيلاً ومجيئاً، وللأحزان ظلالاً، وللفرحة نشوة، والعمر هو كل هذه الأشياء.

إنني في عشقي لمسقط رأسي أدرك كم هو جميل الارتباط بالماضي.. بالأصالة .. بعبق الأرض.. ونسمة الحب الأزلية!

حين تشغلني الحياة، وأنسى لبعض الوقت تلك السفوح التي كانت نقطة انطلاق مداركي، تنبت من تلك اللحظة أشواق وأحلام جديدة.. تسافر بي إلى كينونتي الأولى. أتصور أحياناً أن الحاضر؛ بفوضويته، وصخبه، وتكنولوجيته، وتطوره أجمل ما يمكن أن أعيشه، ثم أدرك بعد ذلك أن الماضي التليد؛ بذكرياته الحميمية المفعمة بالعشق، هو الأجمل والأطهر والأنقى؛ خصوصاً حين أرى شريط الذاكرة يعرض المشاهد المُضيئة التي تدرجت فيها بين الطفولة وعنفوان الشباب.

بعيداً عن قريتي أشعر بأني طير مهاجر أرهقه السفر، دفعت به الأيام

إلى بلادٍ بعيدة، فانكسر جناحه وتبعثر ريشه؛ إلا أنه رغم جراحه مازال ينظر إلى ذلك الربيع البعيد بأملٍ مترعٍ بالصبر، علّه يعود يوما؛ فيؤوب إلى عشه منتشياً، يردد ألحان الحقول من جديد.

في ظل إصرار أمواج الظلام على التوالد والامتداد بعناد مقيت، ما عدت أحتمل حبس حكايتي، أكاد أحترق من الداخل، البكاء في الأعماق أشد قسوة وألماً من بكاء العين، لكني في ذات الوقت أخشى أن يرهقني الخلاص أكثر فأبدو متخلياً حتى عن نفسي، ألم يقل "جلال الدين الرومي": "إن تكن تبحث عن مسكن الروح فأنت روح، وإن تكن تفتش عن قطعة خبز فأنت الخبز، وإن تستطع إدراك هذه الفكرة الدقيقة فسوف تفهم أن كل ما تبحث عنه هو أنت"، إن الأسى ينفجر من قلبي مع الكلمات، أحياناً أحتار في أحوالي حتى تحتدم حيرتي، ثم أدرك في لحظة صفاء أن لا دواء لي إلا بإهراق ما يدور في خلدي؛ فالبوح وسيلة مثلى للإفلات من كل هذا الوجع، لست متأكداً من ذلك، لكني أتصور أن عيوناً ذابلة ستُسقَى بقبلات من نبع مفرداتي؛ لتعود مفعمة بالجمال.

* * *

ذات مساءٍ موغلٍ في الترقب أخذت أروي شيئاً من معاناتي إلى المحامي "كنت"، كنت حريصاً ألا أسردَ كامل التفاصيل، فجأة شعرت بالضوء ينبعث من أعماقي المعتمة، أردت لقصتي الانطلاق إلى فضاءٍ مفتوح.

سألني بهدوءٍ وهو يمسك بيدي: لماذا يا "شيخ محمد"، ما تزال مرتبطاً بالماضي وبنمط الحياة البدائية في القرية..؟

أجبته وأنا أعي مدى ارتباطه بالماضي هو الآخر: لأني أحبها..!

فرك كفيه كما يتم فرك سنبلتين ببعضهما قائلاً: يمر الإنسان بمنعطفات عديدة في حياته، والعاقل من يتجاوز صفحاتها الصفراء متخلصاً من الأوهام بسرعة..!

- ليست أوهاماً بل أوجاعٌ ساقتني إلى هنا؛ لأقف عاجزاً، أستجدي الأقدار أن لا تدع غيظ الرماد يقذف سفينتي للحريق..!

- إذن، حدثني لأرى؛ فنكهة الأرض التي ولدت فيها تفوح من بين ثنايا حكايتك..!

❋ ❋ ❋

حدث في عام 1988م أن حصلت على الإجازة في الحديث والعقيدة في "دار الحديث" ووصفني شيخي حينها بالنبتة المباركة، وقطرة الغيث النافعة، عزمت العودة إلى مسقط رأسي كي أنشر الدعوة وأعلم الناس كما طُلب مني؛ عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم: "الأقربون أولى بالمعروف"، خلوتُ بنفسي لبعض الوقت، وددت رسم ملامح مستقبلي الدعوي، قلت لي وأنا أستنهض قواي الباطنة: يجب أن يكون لي مركز دعوي كمشايخ الدعوة السلفية الكبار، يضم بين جنباته نخبةً من الدعاة وطلاب العلم، لكن ثمة دعاة -في ظل التهافت على المراكز الدعوية- يستميتون؛ ليظفروا بمديريتي التي لاتزال عذراء أمام الدعوة السلفية. صحيح أن هناك بعض المعاهد العلمية، التي أسسها الإخوان المسلمون، إلاّ أنها لا تفي بالغرض نظراً لحزبيتها، وانشغال القائمين عليها بالتنظيمات السرية والأمور التي لا تتعلق بالأحكام الشرعية. المراكز الدعوية فيها خير عظيم، وتعد أكثر تأثيراً في أوساط الناس؛ لأنها لا ترتبط بالأحزاب السياسية، ولا تتغيى مزاحمة الساسة على كراسي الحكم، وإنما تكتفي بنشر الدعوة السليمة بمنهجها الحق الذي يدعو للرجوع إلى الكتاب الكريم، والسنة الصحيحة وفهمها على المنهج الذي كان عليه السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم، هكذا تشربت

الأفكار، وأهلتُ التراب على ما سواها.

ثمة عقبات كبيرة تقف في طريقي، الفكر الماركسي لازال معشعشاً في رؤوس البعض نتيجة لالتحاقهم بما يسمى "الجبهة الوطنية" الموالية للحزب الاشتراكي في الجنوب، التي لم يمر على انسحابها سوى سنوات معدودات، إضافة إلى انتشار المعتقدات الصوفية بين العوام بشكلٍ كبير نتيجة الجهل الذي استوطن المنطقة مع سبق إصرارٍ وترصد، فضلاً عن عدم قدرة الإخوان على تصحيح المعتقدات الباطلة بسبب وجود بعض الأفكار الصوفية في منهجهم؛ كون مؤسس الجماعة الذي يسيرون على نهجه كان قبورياً.

يبدو أن مهمتي الدعوية بالغة الصعوبة؛ خصوصاً وأن المنطقة مترعة بالتوتر، ومثقلة برواسب حرب الرفاق التي أزهقت الأرواح دونما غاية، لكنني سأخوض غمارها؛ كونها الوسيلة الوحيدة لإثبات وجودي أمام شيخي الذي كثيراً ما أشاد بقدراتي أمام طلاب العلم في دار الحديث.

ما العمل إذن..؟

لم أكن أعرف ما الذي أحتاجه لتحقيق الحلم الذي يراودني منذ الصغر، كان كل ما يهمني هو الحصول على ثلاثة أشياء كخطوة أولى في

رحلتي إلى السماء، يأتي في مقدمتها الجامع الذي يُعد الأهم -حسب اعتقادي- كوني سأجعله مركزاً للدعوة السلفية في مديرية "الشِّعِر"، وفيه سألقي الدروس والمحاضرات وخطب الجمعة، بالإضافة إلى المسؤول الذي سيكون سنداً لي في مهمتي الشاقة، وأيضاً المال عصب أي عمل ومحور ارتكازه.

شيء من القلق المروع ملأني إلى درجة أنه لم يترك لي المساحة الكافية للتفكير، أدركت حينها حجم المسؤولية الملقاة على عاتقي من كفي المشيئة العليا، فازداد قلقي إلى أن تدثرت بالسماء الرحيمة؛ فطاب خاطري، وعدت إلي.

حاولت أن أخلق من روحي معراجاً يتسامى في الفضاءات بلا حدود، لكني ما زلت تائهاً بين الخطوط العريضة التي رسمتها لي آخر محاضرة في "دار الحديث".

تناهى إلى مسامعي هديرٌ تتوالى أصواته الجافة، فيبدو كأصوات المدرعات البعيدة، وهي تنقل الجند من مكان إلى آخر، أو كأصوات القذائف التي تمر على علو دون أن تنفجر، ربما كانت الحركة لأسراب الجراد القادمة من الهضبة باتجاه المناطق الوسطى؛ لتأكل الأخضر واليابس مما أبقته الحرب هناك، ربما يكون لجبل "الصراط" النصيب

الأكبر منها، لكنه حتماً لن ينهزم؛ كونه متمرساً على الدفاع عن نفسه، وقادراً على صد أسراب الشر.

لا أدري ما الذي يتوجب علي فعله الآن، لم تعد حواسي التقليدية قادرة على العمل، لأن حواس أخرى تنبت فيَّ فجأة، حواس تشبه الحدس لكنها أكبر منه، أصبح للدعوة رائحة وملمس، وللأفكار ظلالٌ وحجم، لكني عاجز عن تحديد جغرافيتي والعثور على بوصلة حياتي المقبلة.

وجدت نفسي مكبلاً بضيق الوقت نظراً لعدم ترتيب أوضاعي مبكراً، إلا أن ذلك المساء أبى أن يدعني لسيف الوقت وأغلاله، إذ إن رسالة خطية وصلتني من "دار الحديث"، كُتِبَ عليها:

"توكل على بركة الله، جامع بلال في الصلبة ينتظرك، والفندم صالح سيكون إلى جانبك".

في آخر ساعة من الليل، أعددت كتبي وملابسي، حزمت حقيبة الدعوة وأنفاسي بعزيمة وإصرار، رغم الآمال والآلام التي كانت تتنازعني، ويممت شطر أولى المواعيد القديمة، متوهجاً بما يحويه صدري، امتطيت أول سيارة ذاهبة إلى "الشِّعِر"، كان جُل ما أرجوه هو أن أنفذ إلى تلك البقعة المجدبة؛ لأنشئ فيها ربيعاً، وأبذر فيها ما ينبت

نوراً يملأ جنباتها بالإشراق المفاجئ، بعد سنوات من الظلام الذي كان يلفها بصمت، غير أني تفاجأت من الوهلة الأولى عند صعودي السيارة بسخرية رفقاء السفر المستفزة، تصدرهم ذلك السائق الذي صعقني بسؤاله الأول؛ مؤكداً جهل الناس ونظرتهم المغلوطة للدعوة السلفية:

"يا شيخ، هل يجوز للمرأة حلب البقرة، وإدخال الخيار إلى منزلها"؟

تمالكت أعصابي التي كادت تنفجر في وجوههم، وكظمت غيظي بعد أن تيقنت أني في طريق وعر حف بالمكاره، وأجبت:

لا حول ولا قوة إلا بالله، نعم، يجوز، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ﴾، لا تصدق يا أخي، ما تسمعه عن المطاوعة، فذاك محض افتراء وتشويه للدعوة، بارك الله فيك.

تململ آخر في مؤخرة السيارة، وصاح بي:

"أنتم وهابيون، دعمتكم السعودية عشان تلعبوا بعقول الناس".

أجبته، وقد بلعت ريقي، واعتراني غضب صامت:

جزاك الله خير الجزاء، يعلم الله أني لا أملك سوى إيجار السيارة، وهذه المئة الريال الذي بيدي، وليس لي علاقة بالسعودية لا من قريب ولا من بعيد، ولا بأي جهة أخرى؛ سوى بالله سبحانه وتعالى، ثم إنه

مادام عقلك سليم فلن يستطيع أن يعبث به أحد سواك، ذلك أن الخير بيِّن والشر بيِّن، فإن كانت بينهما أمور مشتبهات؛ فالأمر لله ولرسوله، ونحن لا نقول إلا ما قاله الله ورسوله، فما وجدته غير ذلك فارمِ به عرض الحائط.

- "أنتم تكفرون الناس لأتفه الأسباب.. فمن لم يكن سلفياً مثلكم فإنه كافر!".

- لا تصدق هذا الكلام المغلوط الذي يراد به النيل من الدعوة السلفية، نحن لا نكفِّر مسلماً مادام قد أتى بالشهادتين على وجهها، وعمل بمقتضاها ظاهراً وباطناً، ولم يأتِ بناقض من نواقضها.

❊ ❊ ❊

أتذكر ساعتها، ساد صمتٌ تامٌّ لبعض الوقت، الشمس تخترق زجاج السيارة؛ لتلسعنا بحرارتها المتوحشة، وكأن بيننا وبينها ثأراً قديماً، والبيوت تفر من أمامنا تاركة خلفها فضاءً يرتدي الضجر، طريقٌ مملٌّ في أوله، لا شيء يغري العين، أشجار بائسة بين الحياة والموت، جبال عارية، "القعوب[1]" ترتص على جانبي الطريق، أطفال يعترضون طريق السيارة بحثاً عن الفتات، وقطيع من الأغنام العجفاء الضامرة، يهتز

(1) **القعوب**: اليقطين، وهو صنف من أصناف البطيخ، لونه أصفر عند نضجه ويؤكل مطبوخاً.

كيان السيارة كلما مر بنا منحدر، ويرتفع أزيز محركاتها حين تستقيم الطريق، بقيت أنظر إلى السماء علَّ سحابة مثقلة بالماء تعبر من هنا فتظلنا، توقفت ناقلة نفط أمامنا بشكل مفاجئ، كدنا نرتطم بمؤخرتها لولا أن السائق ضغط على الفرامل بقوة؛ فتوقفت السيارة بصوتٍ حاد، اندفعنا مع ضغطة الفرامل إلى الأمام، ومعنا قلوبنا التي كادت تنخلع من أماكنها، صاحت امرأة من الخلف:

"يا بن علوان.. يا صفي الدين"، فصرفتني بهذا الشرك الصريح عن هول الحادث إلى هول يوم القيامة.

آثرت ألا أعنّفها وأنا في هذه الحالة المشوبة بالترقب والحذر حتى لا تصيبني سهام توجساتهم واتهاماتهم لي بالتشدد، فلا يقبلوا نصحي.

كنت أعلم أن ليس هناك دليل على دعاء بعينه بعد النجاة من حادث؛ فاجتهدت بدعاء من عندي: "سبحانك ربي لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك"، أعدت إلى جسدي الروح، ثم طلبت منهم: أن يحمدوا الله ويشكروه؛ إذ نجانا من حادث محقق.

واصلنا المسير دون نقاش حتى فاجأني أحدهم -لعله زوج المرأة- وهو يطلب من السائق التوقف لشراء شمع وأعواد الند والبخور كهدية للشيخ "جيلان".

كنت أعلم أن في إحدى القرى المجاورة "قبة"، دُفِنَ فيها رجل منذ زمن قديم، يعتقد الناس أنه ينفع، ويضر، ويسمع، ويجيب، ويتصرف في الكون؛ ولذلك يقومون بإشعال البخور والشمع بجواره، ثم يتبركون به؛ ويأكلون التراب الذي حول قبره للتداوي!

أتذكر جدتي -رحمة الله عليها- كانت تحدثني عن الكرامات والخوارق التي كان يمتلكها هذا الرجل؛ فتتبادر إلى ذهني المعجزات التي خص الله بها أنبياءَه، كانت تقول لي: بأنه حين يخرج من داره صباح كل يوم، لا يمشي كبقية الناس، بل يمد رجله إلى الجبل القريب، ويضع الأخرى في الجبل المقابل، ثم يختفي عن الأنظار، ذاهباً حيث شاء بهذه الطريقة الخارقة للعادة، وحين أتته المنية، حمله الناس على أعناقهم لمواراته الثرى، بعد أن حفروا له قبراً في مؤخرة القبة -حسب وصيته- لم يتمكنوا من إدخال النعش إلى القبة، نظراً لصغر بابها، فوضعوه عن أعناقهم، وأرادوا حمل جسده منفرداً؛ ليضعوه في قبره، غير أنهم صدموا بعدم وجود الجثة داخل النعش، رغم بقاء قطعة القماش التي سُجِّي بها على حالها، ذلك أنه سبقهم إلى اللحد موسداً نفسه ومستقبلاً القبلة، فقط ينتظرهم ليهيلوا التراب على جسده.

ثم إن الكرامات -حد قولها، غفر الله لها- لم تتوقف بعد موته، بل

انتقلت إلى أبنائه، إذ إن حفيده ذات قحط، طلب منه أهل القرية: أن يستسقي لهم؛ فكتب سورة الواقعة على "دباءة"[1] وصعد بها إلى أعلى القبة، وعلقها هناك، وحين همَّ بالنزول، كانت السماء تأمر الهزيم: أن يمخر عباب الأفق؛ ويحشد المزن فوقه، ما إن عاد إلى منزله القريب حتى هطل الغيث بغزارة مرعبة كادت تغرق القرية وما جاورها، حينها هرع الناس إليه، يستجدونه فعل أي شيء يصرف عنهم العذاب الوشيك، فما كان منه إلا أن صعد إلى "الدباءة" وأنزلها؛ فتوقف المطر بصورة مفاجئة؛ كأنه أمر السماء بذلك.

وبهذا، أدركت أن الخرافات القديمة ما زالت قائمة إلى اليوم، بل إنها أشد مما كانت عليه في السابق، فطلبت من سائق السيارة عدم الوقوف، كي لا يشارك في هذا الإثم العظيم، غير أنه أصر على الوقوف قائلاً: "من أين لكم هذا الدين الجديد الذي لم يعرفه آباؤنا ولا أجدادنا"؟

ليست السعودية أفضل من الأولياء الصالحين الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون، الفرق بينكم وبينهم أنهم كانوا يأخذون علمهم مباشرة من الله تعالى بينما تأخذونه عن آل سعود وعلماء السلطان، ثم إننا

---

(1) **دباءة:** نوع من القرعيات، تستخدم الأحجام الكبيرة منها بعد تنظيفها من اللب والبذور وتجفيفها لخض اللبن في بعض مناطق اليمن.

لا نعبدهم يا "مطوع"، وإنما نتقرب بهم إلى الله تعالى، حين نجعلهم واسطة بيننا وبينه؛ فنتوسل بهم وبقبورهم والتراب والحجارة والأشجار القريبة منها؛ لأن من جاور العظيم فهو عظيم، وإكرام الله لساكن القبر يتعدى إلى القبر نفسه؛ حتى يصح أن يكون وسيلة إلى الله".

* * *

توترت كثيراً من هذا الكلام، وانتابتني حالةُ استياءٍ موجعة، كان بودي أن أغلظ في القول حتى أردع هؤلاء المبتدعة، غير أن الغاية أجبرتني على اللين الذي بلغ حد الإفراط!

كان الأوان ظهراً، مازلنا على مسافة قريبة من مدينة "كتاب"، لقد تأخرنا نتيجة توقفنا الطويل في نقاط التفتيش المتعددة؛ فقد صادفنا مجاميع من المسلحين اعترضوا طريقنا، وأشاروا للسائق بالتوقف، سألهم عن السبب، فأجابوه: أن هناك معركة عنيفة بين قبيلتين من قرية "المنزل" تُستخدم فيها جميع أنواع الأسلحة الخفيفة والمتوسطة، سقط فيها ما يربو على عشرة قتلى، وعدد كبير من الجرحى؛ لذا يجب التوقف لبعض الوقت حتى تصل أجهزة الأمن، وتقوم بفتح الطريق العام، ما إن سمعت المرأة هذا الخبر حتى علا صوتها، مولولة بكلمات غير مألوفة، لم أفهم منها سوى: " يا بن علوان، يا صفي الدين، يا خمسة، يا ذي بالقبة

أغيثونا ". نفد صبري، ما استطعت تقبل هذا الأمر، حاولت أن أنصحها؛ لتبتعد عن الشركيات التي وقعت فيها بطريقةٍ لا تؤلب علي من في السيارة: "يا حجة، اتقي الله، هؤلاء قد ماتوا ولا يستطيعون أن ينفعوك بشيء، بل لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً، فضلاً عن أن يملكوا لغيرهم، إن من هو أفضل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يملك ذلك فما بالك بمن تسمونهم أولياء، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا﴾. فلماذا لا تلجئين إلى الحي القيوم الذي لا يموت، رب هؤلاء ورب الناس أجمعين..؟ لكنها صرخت في وجهي: "كل هذا الدبور بسببك يا وهابي أنت ولحيتك المدهونة"!

ضحك الجميع بسخرية مفرطة، فانتابتني حالة صمت موجعة. غادرت على إثرها السيارة إلى الجامع القريب.

أتذكر أنني حين خرجت من الجامع، جُلتُ بعيني في الأنحاء، دم المغيب ينتشر فجأة في الأفق كدماء آلاف القتلى الذين لقوا حتفهم على سفوح هذه الجبال الشامخة في حرب عبثية أوقد جمرها الشرق والغرب، ولم يكن اليمنيون سوى أداة للموت، في تلك الأثناء ظهر أحد المسلحين منادياً: الطريق فُتحت.

كان الجميع خارج السيارة، ما بين مخزنٍ ونائم، شعرت بكأس من

الحزن تراق في أعماقي على حال هؤلاء الجهلة، فيما كانت السيارة تصعد على مضض، عدت إلى شريط ذكرياتي في "دار الحديث" كانت آخر محاضرة تلقيتها هناك تدعو إلى الوقوف بصلابة أمام مشائخ أصحاب البدع أثناء محاورتهم، وعدم منحهم الفرصة الكافية لاستعراض بدعهم التي سيتقبلها العوام بسهولة نتيجة للجهل الذي يعيشونه، لذلك كنت على يقين بأن كل من حولي جُهَّال لا يعون الحق ولا يفرقون بينه وبين الباطل؛ فأشحت بوجهي نحو النافذة، وتركت خيالي يعد أول خطبة سألقيها غداً في جامع بلال الذي ينتظرني، خطر في بالي أن تكون الخطبة عن البدع التي عمت المديرية، وتحذير الناس من الشرك على اختلاف مظاهره، ومن الأفكار الدخيلة، والأحاديث المنكرة التي شوهت جمال الإسلام. لكنني لا أستطيع فعل ذلك؛ نظراً لوجودي بين أناسٍ حديثي عهدٍ بالدعوة السلفية، ولن يستسيغوا حديثي.

إذن، علي أن أتحدث عن الحزبية والانتخابات والديمقراطية التي أتى بها الغرب بهدف إفساد المسلمين وزرع الفتن فيما بينهم، لكن، لن أسلم من الإخوان المسلمين الذين ينظرون إلينا شزراً، ولا يعرفون لنا قدراً، وسيؤلبون علي العامة؛ فيحولون دون أداء واجبي الدعوي؛ لهذا يجب أن أدع هذه المواضيع جانباً، حتى يتسنى لي الجهر بها ساعة أن يكون لي طلابٌ ومناصرون يدافعون عني وعن الدعوة.

ما الحل إذن؟!

ليس هناك أفضل من أن أتحدث عن الحلال والحرام، بعيداً عن تلك البدع والحزبية والانتخابات والديمقراطية، حتى لا أصطدم بأحد، ولا أُغضب آخر، على الأقل في أول حضور لي على المنبر.

يا إلهي!! لكن الكثير من أبناء المديرية مغتربون في "الولايات المتحدة الأميركية"، والبعض منهم يمتلكون محلات تجارية، يبيعون فيها بعض المحرمات ويتعاملون بالربا ولن يعجبهم كلامي، وسيعتبرونه استقصاداً لهم؛ فينفرون مني، وربما يدفعون أموالاً طائلة -كما هو معروف عنهم- للخلاص من مركزي الذي سيعتبرونه عدوهم اللدود.

يبدو أنني بدأت إعلان انهزامي قبل صعودي المنبر، وهذه ليست من صفات الداعية الواثق بدعوته المستعين بخالقه عز وجل، يجب أن يكبر الداعية في عين نفسه؛ لتصغر حينها كل هذه الجزئيات في عينه، شعرت حينها بلوني يُخطف، وأنفاسي تعلو متقطعة، وكأن عيون الكون ترقبني بصمت، فعدت أدعو الله في نفسي: "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه، اللّهم، إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسالك قلباً سليماً

ولساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب".

حين أُذن لصلاة العشاء، كان السائق يركن سيارته بجوار أحد المنازل في مدينة "السَّدة" قائلاً:

"الإضاءة في السيارة غير صالحة، ونقيل " الشق" لا نستطيع السير به نهاراً إلا بشق الأنفس فما بالكم ليلاً، ودون إضاءة، سنصلي بالجامع، ونرقد الليلة بمنزل كريمتي، وغداً نكمل المسافة المتبقية إن شاء الله".

بادر الجميع بالقبول، غير أني اشترطت عليه أن يكون السفر في اليوم التالي بُعيد صلاة الفجر، حتى أتمكن من أداء خطبة أول جمعة في مسيرتي الدعوية.

أجابني ساخراً: "بإذن الله يا مطوع، ما لم فعليك إلقاء خطبة الجمعة هنا في أحد مساجد الزيود حتى يشبعوك ضرباً؛ فيعود إليك عقلك الذي أذهبه الوهابيون".!!

***

شعرت بأمواج الصمت تنسكب من أهدابي ومن الباب الأبيض حيث المصلون، ليست المسألة كم سخر مني هذا السائق طوال الطريق،

وإنما كم سيسخر مني طوال الليل، لكن حسبي أن أزرع ضوءاً مبصراً يسخر من ظلام جهله.

كانوا قد سبقوني إلى منزل أخته، بينما تأخرت قليلاً في الجامع، حين دخلت عليهم انطفأت بين أصواتهم المرتفعة، كانوا يرددون ما يسمونها أوراد الحضرة، شعر بي شابٌ كان يقف بجوار الباب يشع من بؤبؤ عينيه بريقٌ؛ فأوحى إليَّ أن ألحق به خلسة إلى الخارج، غمرتني السعادة حين وجدت الشاب يغمد المفتاح في ثقب باب الغرفة المجاورة، طالباً مني أن أسبقه إلى الداخل، كان باب الغرفة ضخم عتيق من خشب "الطنب"، لا شك أن هذه الأبواب لا يمتلكها سوى الأثرياء، مكثت فيها لبعض الوقت منفرداً، ثم جاء ليقول لي: إنه فعل ذلك؛ كي يبعدني عن هؤلاء الجهلة الذين يسخرون مني ويزيدون عنادهم؛ كونهم لا يقدرون مكانة العلم ورجاله، ولا يدركون ما هم عليه من الجهالات والأباطيل، انهمر النور آنذاك فملأ جنبات روحي بإشراق مفاجئ، خصوصاً حين اخبرني أنه ابن ذلك السائق الذي يسخر مني، وأن اسمه "طه"، كانت ملامح استقامته تتوغل مباشرة إلى قلبي مع أنه حليق اللحية، شكرته كثيراً على ما قام به تجاهي، ثم سألته:

- ما دمت من "الشِّعِر" ماذا تعمل هنا..؟

- كنت في طريقي إلى صنعاء فأخبروني أن الطريق مقطوعة؛ فأحببت أن أقضي هذه الليلة في بيت عمتي، ثم ألتحق بعملي غداً بإذن الله.

- هل أنت موظف؟

- نعم، أعمل صحفياً.

- إذن، بما أنك صُحفي حدثني عن "الشِّعِر" فإن غيابي عنها امتد لسنين طويلة.. ما عدت أحتمل الانتظار لأراها..!

- "الشِّعِر".. مديرية الثراء، عاصمة التفاخر، مهبط رزق المسؤولين و"الحكام"، حاضرة الدولار، والإسراف متربع على شماريخ فنها المعماري المهجور..!!

هي على مقربة من السماء، حيث لجبالها الشامخة جوار مع النجوم، وما بين تلالها والجبال تمتد مساحات نصف شاسعة مسكونة بتواشيح الغياب، ينام الغيم على منحدر أنف زائرها، وينسكب شعاع الشمس في طرقاتها الوعرة المحفوفة بالأعشاب الخضراء المتمايلة؛ نتيجة للمقاطع الموسيقية التي تعزفها الجداول، وهي تركع بين يديه.

في "الشِّعِر" منازل يستوطنها الفراغ، ومتاجر ينقصها "الزبائن"، ومدارس خاوية على عروشها، ومستوصف عبارة عن بقايا أطلال،

"ومركز حكومي" عامر بالمكايدات والقضايا المفتعلة؛ لذلك، فإن الثراء الذي يلمزونها به، هو واقع على الشفاه، ومجرد وهم أمام الواقع!

المناكفات والمماحكات البينية هي أبرز معالم المديرية، ثقافة الاستقواء بالمال هي الأكثر رواجاً في أوساط المجتمع "الشِّعِري" حتى أن الطبقة التي لا تمتلكه تعاني الأمرين في سبيل بقائها على قيد الحياة بجوار الطبقة الارستقراطية الموهومة بالرقي والتحضر.

في "الشِّعِر".. يمتزج الألم بالحبر، ويعانق الوجع الرحيل، وتصطدم آهات المحرومين بتعنت الذوات وأصحاب الجاه.

"الهيئة التعاونية" تحلق خارج السرب، والتنمية شعار يرفرف على مقربة من الجيوب المفتوحة.

لا مجال للمزيد من المفردات التي ترتدي عباءة الجمال، ولا جدوى من تنميق العبارات، فالمديرية ستصبح عما قريب موطناً للأشباح، ما لم تتغير سياسة المفاضلة الجهوية الرعناء.

ثمة قرى تفتقر إلى أبسط مقومات الحياة، وثمة مشاريع تصادرها العقليات البالية، وتلتهما الذاتية الموغلة في الفشل.

نحن نعيش على مشارف نهاية القرن العشرين، بينما سكان بعض

القـرى يـستخدمون وسـائل النقـل البدائيـة كـالحمير وغيرهـا لنقـل احتياجاتهم اليومية، ذلك أن الجرافات تتوقف عن شق الطرق إلى القرى المنكسرة ألماً؛ إكراماً لذوي الجاه والمال ممن لا تعنيهم المصلحة العامة بقدر ما يتسابقون على "الشخيط والنخيط"!

"هيئة التطوير" أعلنت عجزها حيال هذه المواضيع التي أرهقت كاهل المواطنين، بينما تُتَهم المديرية -زوراً- بالثراء، وهي في حقيقة الأمر فقيرة أمام المد التنموي الذي طال أخواتها!

النزف مؤلم، غير أنني وإن كان في جعبتي الكثير أكتفي بهذا القدر من السرد؛ لأدعك تفتش بين جراحها عن أنين التراتب.

- أيها الصحفي الطيب، بارك الله فيك، وجعلك مشعل نور وهداية؛ لتخرج أباك من الأدغال المظلمة التي استوطنها بعد أن جرفته البدع والخرافات إلى قاعها السحيق، لكنك بكلامك الجميل لم تتطرق إلى أحوال الدعوة هناك، ولا إلى حظي في القضاء على الشركيات والبدع، وجعل الناس يُقْبِلُون على الخير، ويلتفون حول المنهج الصحيح والدعوة الحقة!!

- لن أزيد عمّا قلته لك سوى أن الشباب هناك فيهم خير كثير، فقط هم بحاجة إلى مرشد يهديهم إلى الصراط المستقيم، كما أنه رغم الانتشار

المخيف للبدع والخرافات والأفكار المنحرفة بمقدورك أن تعيد أباءهم إلى جادة الصواب، إن تمكنت من استقطابهم لسماعك، حينها سيكون من السهل عليك تطهير عقولهم من تلك الشوائب التي علقت بها.. لا تخشَ شيئاً يا شيخ، اعقلها وتوكل.

أضجعت روحي على صدر الطمأنينة بعد أن خلعت إزار الخوف الذي ألبسنيه رفقاء السفر؛ فتدفقت بين جوانحي بشائر النجاح بانسياب عجيب. صحيح أنني أكره الصحفيين، ولا آمل منهم خيراً؛ كونهم يترصدون مواطن الخلاف، ويثيرون الفتن، ويشعلون فتيلها، وليس لهم قيمة أخلاقية عندنا، إلا أن هذا الشاب أكد لي من خلال حديثه أن بعض الصحفيين كشجرة وارفة الظلال، لا تؤتي أكلها وحسب، بل تهواها القلوب لظلها أيضاً.

لم أنم طوال الليل، أبقاني الصخب الذي ينبعث من أصوات الدفوف القادمة من الحجرة القريبة، والخطب، وما يسمونها الأوراد، والشِعر، والإنشاد، والمديح، والأذكار التي ما أنزل الله بها من سلطان، مستيقظا، لكن وجودي على ما يبدو شوش عليهم الوصول إلى لحظة الصفاء التي يدعون أنهم يرون فيها الله رأي العين، هكذا سمعتهم يتحدثون.

أفزعني صوت ذلك المؤذن الذي لا يتنحنح قبل الأذان، ولا يصدر صوتاً بالمايكروفون حتى لا يفزع النائمين، صوتٌ زاعقٌ أجش أفزع ساعتي القلقة التي لم تتشكل عقاربها إلا مع غبش الفجر الذي مد خيوطه؛ ليدلني على السيارة المركونة في الخارج.

مررنا بقرية "الأغبري" وسواقي الماء المتعرجة تسير بين مزارع الذرة والشام بدلال؛ لترسم بريشة فنان لوحة بديعة مكتملة البهاء والسحر، تثاءب أحد الركاب بصوت مسموع قبل أن يقول متناولا التفاحة ويقضم منها قضمة: "سمو هذه القرية الأغبري وهي بهذا الجمال بينما سمو قرية أخرى الأخضري وهي رمادية قاحلة منهكة مستسلمة للعراء".. ضحكنا جميعاً، ثم عبرنا سائلة "المقالح" وهي مليئة بالمياه المتدفقة حين خرجنا منها وبدأنا نرتقي "العقبة" التي تليها، توقفت السيارة معلنة عجزها عن الصعود، نزلنا منها جميعاً باستثناء المرأة التي لا تنفك تطالبنا بالاستنجاد بـ: "ابن علوان" مع كل حدث يواجهنا، وبينما كنا نحشر الأحجار خلف إطارات السيارة حتى لا تعود إلى الوراء كان أحد الأشخاص يجلس على صخرة بالقرب من السائلة حين رآني أنظر إليه خلع "فردة " حذائه اليسرى، وراح يغمس رجله في الماء ويضحك بسخرية مقيتة لم يخلصني منها سوى نجاح السائق في

تجاوز تلك العقبة المخيفة والانغماس بين البيوت التي تفوح منها رائحة الملوج المنبعثة من "السقائف"، ومن أثواب النساء التي تعطرت بها. استمرت السيارة مكملة تسلقها المخيف حتى وجدنا أنفسنا على مقربة من السماء في قمة جبل "عجبان" المهيب؛ لتشرع بالهبوط التدريجي في المنحدر الجبلي الذي شقه المواطنون بأظافرهم وإمكاناتهم البدائية بتوجيهات صارمة من "نعمان سيف" قائد المحور أيام الرئيس الحمدي وخطته الخمسية، باتجاه "باب البرح" حيث الأجواء الباردة التي تضوع معها نسائم النباتات العطرية المنتشرة على السفوح المحاذية للطريق، ما إن تنسمنا شيئاً من عبق المكان حتى ظهر لنا "نقيل الشق"؛ هذا النقيل الشاهق الملتوي كثعبان، تبيناه من علٍ بكل تفاصيل عذاباته التي انتهت رحلة عدد من السيارات عند مشارفه، وبينما كنّا نخوض مغامرة الهبوط عبر أول منحدر صخري سحيق واجهتنا جنازة يرتفع صوت من يشيعونها بالتهليل والتكبير، قال سائق السيارة ساخراً: "هلل يا مطوع؛ لتنال الثواب"!

أجبته وقد اعتراني الحزن والأسف على حال هؤلاء الجهلة: لا يجوز، هذه بدعة، والبدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

- "يعني أيش، كل الذي مع الجنازة في النار؟"

- جزاك الله خيراً، رفع الصوت بالأذكار مع الجنازة لا أصل له، بل إنه من البدع، وبالتأكيد كل مبتدع في النار ما لم يتب عن بدعته، هذا بالنسبة للمبتدع المصر، أما الجاهل فيعلَّم..!

- "مش غريب عليكم فمؤسس جماعتكم قام بتكفير الناس بشكل جماعي عند تأسيس مذهبه في الجزيرة العربية، وبقر بطون النساء، ونهب الأموال، وارتكب مجازر مروعة".

- مؤسس جماعتنا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما دونه يمكن أن يؤخذ منه ويرد.

- "طيب ماذا عن حديث: "اقرؤوا على موتاكم يس".

- ضعفه الألباني، وبعض العلماء يقولون: إن المقصود به قراءة يس عند الاحتضار.

- "الحديث يقول على موتاكم أما المحتضر فإنه ما يزال حياً، هههههه، طيب، إذا التهليل بدعة أيش تشتيهم يعملوا"..؟

- يفكرون بالموت وعواقبه ومآلات الحياة الفانية، ويدركون أنهم صائرون إلى ما صار إليه هذا الميت فيعدون العدة، وحين يفرغون من دفن الميت يرددون هذا الدعاء: اللّهم اغفر له، اللّهم ثبته بالقول الثابت،

اللّهم ادخله الجنة، ونجه من النار، فقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: " استغفروا لأخيكم، وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل".. ثم سأقول لك شيئاً آخر: ألا تلاحظ أن الناس يسيرون أمام الجنازة وهذا لا يستحب، الأفضل أن يسيروا خلفها.

– "صدقني مالكم علم، المفروض يكون السير أمامها لأن المشيعين هم شفعاء الميت، والشفيع يذهب قبل المشفوع له وليس بعده".

توقفنا قليلاً ريثما تمر إحدى السيارات التي تعطلت أمامنا بسبب إطارها الذي تسرب الهواء منه كجثة تخرج منها روحها، كان سائق السيارة يتمتم ببعض الكلمات التي يرددها الصوفيون ويحرك جسده، فقلت له: هل تعتقد أنك تعبد الله حين تتحرك أثناء ترديد هذه "الخرافات"..؟!

– "أنا لا أعبد الله بالتحرك وإنما بحضور القلب، والتحرك لذاته مباح، والأصل في هذا الموضوع أن الإنسان حين يتحرك ينفصل عن الانشغال بما حوله من التأثيرات، وتشتاق روحه إلى الأنس والقرب من حضرة ربها؛ فتكاد تلحق بعالمها وأفقها السماوي الروحاني حيث الملأ الأعلى، وتتجرد من ظلمة الجسد وتتخلص من عوائقه.. لن تشعر بما أشعر به يا مطوع، فلا يشعر بذلك إلا من ذاق حلاوة القرب، فمن ذاق عرف".

– لا فرق بين هذه الحركة وبين حركة اليهود عند حائط المبكى، يبدو أن مؤسس الصوفية يهودي! قلت ذلك وأنا أضحك حتى لا ينهالوا علي ضرباً.. فردت عليَّ المرأة من مؤخرة السيارة "والله ما يهودي ابن يهودي إلا أنته يا دقن المعزة".. وأعقبها آخر: "تعلمتم اليهودة على أصولها يا مطاوعة، لكن با يجي لكم يوم!".

ظلوا يتناوبون على شتمي، وأنا أتظاهر بالعطاس، وأدفن وجهي في "شالي" حتى إذا ما انتهينا من نقيل العذاب التفتُ إلى الخلف، ورفعت عينين دائختين في محجريهما إلى راكبٍ كان يستند بذقنه إلى كرسي السائق، ويدقق النظر إليَّ، وفي عينيه تعاطف شديد معي، بينما بدا الآخرون كعلامة استفهام كبيرة في وجه مستقبلي!

وصلنا الصلبة، قبيل الظهر، فوجئت بشجار أمام الجامع بين جماعتين: جماعة تطالب ببقاء إمام الجامع السابق، وأخرى ترفضه بحجة أن هناك إماماً جديداً، كان الإمام السابق موجوداً بينهم يحاول دخول الجامع إلا أن عدداً من الشباب يقفون أمام الباب، ويمنعونه من الدخول، حين اقتربت من الجامع ألقيت التحية على الحضور فأفسحوا لي المجال لدخول الجامع، مددت قدمي مع امتداد المعاناة التي عشتها طوال الطريق، صعدت المنبر، ولم ألق بالاً للأصوات التي علت ولا

لفئات المصلين الذين تركوا أماكنهم وغادروا الجامع، ألقيت خطبة الجمعة بكل اعتزاز؛ كوني أدركت أن الواجب على الداعية المحافظة على هيبته، وعدم تعريضها للنقص أو الاهتزاز؛ لأن ذلك فيه ذهاب علمه وانصراف الناس عنه وعن دعوته، فكانت شاملة كاملة، تناولت فيها كل الجوانب التي كنت أخشى قولها، معززاً كلامي بالأدلة الدامغة من كتاب الله وسنة رسوله، دون تردد ولا مساومات، متصلاً بالله عز وجل ومخلصاً النية له، لا أرجو من ورائها سوى رضاه، ولا أتطلع إلى مكاسب شخصية أو منافع دنيوية، وعندما يكون الكلام نابعاً من القلب فإنه يجد طريقه إلى القلوب دون عناء، شعرت وأنا ما زلت في المنبر بالارتياح على وجوه الحضور، فاختصرت الخطبة كي أجعلهم يتطلعون إلى محتوى الخطبة القادمة، فيظل ارتباطهم بالجامع قوياً.

* * *

رائحة الدعوة السلفية تفوح كقميص يوسف في مديرية ابيضت عيناها من البدع، مرت سبع سنوات، وأنا أؤدي رسالتي الدعوية على أكمل وجه، لم أتعثر، ولم يساورني شكٌّ بصدق ونجاح ما أقوم به، صحيح لم يكن لي عدد كبير من الطلاب المتفرغين، غير أني تمكنت خلال هذه الفترة من القضاء على الكثير من البدع والشركيات التي كانت

منتشرة بشكلٍ مهولٍ في المديرية، وعملت على تصحيح المعتقدات الخاطئة والأفكار الزائفة رغم ما لاقيته من بقايا الشيوعية والحزبيين والصوفيين الذين وقفوا بشراسة في وجه دعوتي، وحاولوا تكسير مجاديفي.

شعرت في بداية الأمر أنني تائه ووحيد كقشةٍ تتلاعب بها أمواج بحرٍ هادر، غير أني امتطيت شراعاً من نور، وسرت أشق عباب المصاعب حتى مضى شراعي إلى حيث لا تشتهي رياحهم، ولأن حجتي كانت الأقوى فقد تمكنت من سحب البساط من تحت أقدامهم رغم إمكاناتهم المادية الهائلة، وتواجدهم الأقدم، لا لشيء إلا لأني ما بحثت عن منصبٍ ولا جاهٍ، وإنما دعوت إلى الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله على فهم السلف الصالح دون غلو ولا جفاء ومن غير إفراط ولا تفريط.

أذكر أن شخصاً يدعى "سلطان" عرض عليَّ ذات صيف، بعد أن انتهيت من أحد الدروس المسائية، التكفل ببناء منارة للمسجد، فنصحته ببناء جامع في قريته خيراً له من هدر ماله في هذه البدعة التي لم تكن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا الخلفاء الراشدين من بعده، فقبل نصيحتي برحابة صدر بعد أن جرى بنا خيل الحوار في كل مضمار، فاستبدل هذا العرض بآخر، وهو القيام بفرش المسجد؛ لأنه يبحث عن

أي شيء يقدمه لطلاب العلم؛ لينال الأجر من الله عز وجل، فقبلت منه ذلك، إلا أنه حين أحضرها نهار اليوم الثاني منعه الطلاب من إدخالها إلى المسجد بحجة وجود خطوط عليها تستخدم لتسوية الصفوف عند إقامة الصلاة، انتظرني حتى أتيت، وسألني عن ذلك فأجبته: هذه بدعة أخرى، ونحن لا نقبل البدع في مسجدنا، هذا دين لا يقبل المساومة.

كان الرجل يود أن يكون له موطئ خير عند طلبة العلم، فأعادها إلى التاجر الذي ابتاعها منه واستبدلها بأخرى ليس بها خطوط، فقبلناها منه.

كان غالباً ما يحضر الدروس والمحاضرات التي ألقيها في المسجد، أما صلاة الجمعة فلم يكن ليصليها في غير مسجدنا مطلقاً، كثيراً ما كان يسألني عن البدع وعن المسائل الخلافية بين السلفيين والإخوان.. وأصحاب الجمعيات.. وعن الخلافات السلفية - السلفية، كان كثير الأسئلة وكثير العطاء ، كان يعطي المركز بسخاء حتى صار الركيزة الأساسية للإنفاق على طلاب العلم.

سافرت معه ذات شتاء غائم الملامح إلى صنعاء، وكان يحمل مسدساً، وعندما مررنا بأول نقطة تفتيش عرض عليهم بطاقته؛ فسمحوا له بالمرور بسلاحه، حينها تبادر إلى ذهني أنه "الفندم صالح" الذي ذكره شيخي في رسالته لي عند سفري إلى المديرية، لكنه -حين عودتنا-

حدثني عن أعماله في "أميركا"، وعن مشاريعه العقارية التي تدر عليه أرباحاً طائلة؛ فنفيت عنه ذلك، في الوقت الذي يكون فيه في "أميريكا" كان يطلب مني السفر إلى "إب" أو "تعز" لاستلام مبالغ مالية من أشخاص لا أعرفهم، جزء منها أسلمها لأولاده والباقي معونة للمركز، الغريب أنهم كانوا يطلبون مني التوقيع على إيصال باستلام المبالغ المالية وفي كل مرة كان يختلف اسم المرسل بينما يظل اسم المستلم كما هو..!

لم أخش شيئاً، ولم يساورني شكٌّ طيلة قيامي بهذا العمل، كنت أرى أن الرجل كريمٌ، يوفر لنا كل ما يسد احتياجات المركز، فهو يستحق ذلك الوقت الذي أسترقه من برنامجي المليء بالمحاضرات والدروس لأوصل الأموال إلى أبنائه.

* * *

في صباح عيد الفطر المبارك، عقب حرب 94 بعامٍ واحد، كان منبر المسجد على موعد مع شيخ السلفية في اليمن لإلقاء خطبتي العيد، وتهنئتنا بنجاح المركز، وتحقيق الغاية المرجوة منه، بحضور عدد كبير من طلاب العلم الذين توافدوا من كل حدبٍ وصوب، وكنت على موعد مع البارود الذي اخترق ظهري. صبي في الثامنة من عمره، أراد والده أن يهديه سلاحاً يوم العيد، فأهداني رصاصة استلت الابتسامة العريضة

التي ارتسمت على وجوه طلاب العلم، وضرجتني بدمي المسفوح عبثاً؛ لتتركني روحاً مهترئة تنازع الموت وحدها. أطلق الرصاصة من مسافة قريبة فارتطمت بالجدار وعادت إلى ظهري، شعرت آنذاك كأن الكرة الأرضية توقفت عن الدوران وصارت تدور في داخلي، تحلَّق الطلاب حولي وربطوا مخرج الدم بـ"لحاف" أحدهم، وبقيت أصرخ بكل ما فيَّ من ألم، دار رأسي وثقل جفناي، فحملوني إلى سيارة والد الطفل، وانطلقوا بي بسرعة فائقة إلى مستشفى الثورة في "إب"، حيث حاول الأطباء هناك إخراج الرصاصة، وإيقاف النزيف، ومنع تدفق الدم، فتحققت لهم الثانية والثالثة وعجزوا عن الأولى، كون الرصاصة في منطقة حساسة جداً، والتعامل الجراحي معها قد يؤدي إلى إصابتي بشللٍ نصفي أو تام، لم أكن أقوى على الحركة، ولا أشعر بشيء إلا عندما أعود إلى وعيي، حينها كنت أردد الشهادتين أمام نظرات الأطباء والممرضين الذين كنت أسمعهم يتحدثون عن عدم جدوى العلاج في المستشفى، وأن لا وسيلة ناجعة سوى سرعة تسفيري إلى الخارج، "الأردن" أو "ألمانيا"، كان أبو الطفل إلى جواري، قال للأطباء: سأخرج الآن أرتب لسفرنا إلى الأردن، غير أن "سلطان"، الذي كان هو الآخر معنا في المستشفى، صرخ بأعلى صوته رافضاً السفر إلى "الأردن" بحجة أن الجراحة في "ألمانيا" أكثر تطوراً وأنها تعد من أهم دول العالم في الرعاية الصحية، والد الطفل كان

يقف هلعاً خشية أن يصيبني مكروه، كنت أرى ذلك من خلال وجهه الممتقع بالحسرة والأسى، فوافق على اقتراح "سلطان" على الفور.

سافرنا بعد يومين من الحادثة، وخضعت على الفور لعملية جراحية في مستشفى "إيندورن الجامعي" في مدينة "هامبورغ"، ثاني أكبر مدن "ألمانيا الاتحادية"، حين أرقدني الطبيب على طاولة العمليات، ووضع الجهاز الذي يشبه الكمامة على وجهي شعرت أن مركزي الدعوي ينزلق بين "المنج"، ويستلقي على أدوات الجراحة، ويقفز فوق الدم، وطلاب العلم يتدارسون على الضوء الذي يرصد حركة يد الطبيب، ويتسلقون خيوطه، وأنا أسير إلى الغيبوبة شاداً كتبي إلى صدري، والعلم يتسلل إلى أوردتي.. والله يحرسني، تخيلت أمي وأبي وهما يربتان على كتفي؛ لأكون قوياً لحظة انتزاع الرصاصة من خاصرتي، بينما تقف زوجتي وأبنائي مصعوقين فاغري أفواههم كمن يشاهد طفلاً تلتهمه عجلات القطار السريع، وأنا سادر في غفلة عن الذات وعن جوهري الحقيقي أتحين انقضاء أجلي بصمت.

فتحت عينيَّ بصعوبة، كنت أخال جفنيَّ ثقيلين ما استطعت أرخيهما، تناهى إلى سمعي صوت والد الطفل: "حمداً لله على سلامتك يا شيخ محمد، ست ساعات وأنت في غرفة العمليات".

كانت روحي تهيم في ملكوتي، تراءت لي "الصلبة" مدينة عامرة جليلة ذات نخيلٍ تقف على أطرافها أنثى فاتنة حين أرخت ضفائرها وألقت على السعف خمارها توهجت أنساق النجوم المختفية عن أجهزة الرصد الفلكي أو المتلاشي ضوءها لتزيح ستار الليل عن عينيّ مدينة غفت تبتكر أحلامها أو تصارع كوابيسها.

كان والد الطفل قلقاً ومتوجساً يخاطب خاطره ولا يعلم أن روحي الهائمة تتماثل للشفاء، وإن كنت ما أزال مغمض العينين ولم أفق من غيبوبتي بعد، لقد كتب القدر مشيئته وأنزل اللطف، ولا ذنب لوالد الطفل سوى أنه وقع ضحية للعادات والتقاليد السيئة التي تفرض حضورها الصاخب في المجتمع الريفي بشكل مخيف.

خرجت من المستشفى بعد شهرٍ واحد من إجراء العملية الجراحية الناجحة، كأن لم يصبني أذى، كنت أرغب بالعودة إلى مركزي الدعوي، الذي لم يفارقني طيلة فترة علاجي، حتى أكمل مسيرتي الدعوية التي هي كل ما أملك في هذه الدنيا، غير أن والد الطفل أصر على البقاء لبعض الوقت كفترة استجمام ينصح بها الأطباء -عادةً- بعد العمليات.

* * *

قبل سفرنا بيومين ذهبنا إلى الطبيب الذي أجرى لي العملية، فكشف عليَّ وهو يتحدث لوالد الطفل بالإنجليزية، وأنا أتأملهما يضحكان بطريقة هستيرية، سألت والد الطفل عن سر تلك الضحكة فأجابني: أن الطبيب كان يتحدث عن نجاح العملية، وعن توقف الرصاصة على مسافة قريبة جداً من النخاع الشوكي الذي لو لامسته لسببت لي شللاً كلياً لا أستطيع بعده الحركة.

وفي نهاية الحديث طلب منه الطبيب تسجيلي في نادٍ رياضي بهدف ممارسة الرياضة بشكل منتظم؛ لأهميتها القصوى بعد عملية من هذا النوع، إلا أنه أخبر الطبيب بأني أعيش في الريف، حيث لا تتوفر لنا الاحتياجات الضرورية فضلاً عن عدم وجود نوادٍ رياضية، فطلب منه الطبيب مازحاً تزويجي امرأة أخرى فور وصولي اليمن، حتى تقوم ومعها الزوجة السابقة مقام الأجهزة الرياضية!

ضحكنا سوياً ونحن نسير نحو الفندق الذي نقطن فيه، حين وصلنا إلى منطقة قريبة منه، طلب مني أن أسبقه إلى الغرفة كي يذهب ليشتري لنا بعض الهدايا التي سنحملها إلى اليمن، ما إن غاب عن ناظري، حتى كان الشارع المقابل للفندق ممتلئاً بسيارات الشرطة، والسماء ملبدة بأضوائها، وأصواتها، أما صالة الفندق وباحته فكانتا مكتظتين بأفراد

الشرطة الذين يتحدثون عبر أجهزة اللاسلكي، وهم في وضعية الانتشار، توقفت قليلاً أتأمل هذه اللوحة الأمنية التي تعكس هيبة الدولة.

قادتني خطاي نحوهم ببطء، كنت أقول في خاطري: لو أن الاقتراب منهم ينقل العدوى، كنت انغمست فيهم حتى أنقلها إلى أولئك الكسالى في اليمن، فيصبحون بين عشية وضحاها مثل هؤلاء النمور، كنت كلما أمد قدمي يزداد وتر روحي توتراً، وفي باطني قلقٌ وأرق، حتى إذا ما لامَسَتْ قدمي فناء الفندق توجه الجميع نحوي شاهري أسلحتهم في وجهي، وبحركة سريعة كبَّلوا يدي إلى الخلف ودفعوني إلى داخل سيارة الشرطة التي تبين لي -لاحقاً- أنها كانت تنتظرني للاحتفال بنجاح عمليتي الجراحية على الطريقة البوليسية الألمانية.!

لم يحدثوني طوال الطريق، بل كانوا يتحدثون فيما بينهم بشكلٍ مستمر، حتى أجهزتهم اللاسلكية لم يتوقف صراخها مطلقاً، كانت المسافة بعيدة بينما كان قلبي قريباً من الله، توارت البنايات الكبيرة والمنازل ولم تتوارَ أسماء الله الحسنى عن ناظري، الإسفلت يبتلع الأضواء، والليل يحيك ما تبقى من الطريق أمام سيارات الشرطة التي

تتابع مسيرها بصمت، بينما بقيت أعماقي تضج بالقرآن والأدعية، رآني أحدهم أتلفت حولي فأوعز إلى من بجواري فربط عينيَّ برفق، تصلبت المدينة المشعة بالحركة متحولة إلى شبح داكن فاكفهرت سمائي دمعة واحدة، أخذ الصمت يهدئ أعصابي، ولما كان السكون الشامل، وجدتني دون قيد منفرداً في غرفة مظلمة ليس بها سوى ثقب ضيق يتسرب منه شيء من الضوء لا يكاد يدلني عليَّ، تلمست الجدار القريب علني أجد شيئاً، كنت أبحث عما يسد رمق هذا الوضع الحالك بما تيسر من ضوء، ففي نفسي جوع إليه، مرَّرت باطن كفي بشكل أفقي حتى وقع في قبضتها زر، أمسكته بقوة حتى لا يفر مني ثم ضغطت عليه بلطف كما فعل ذلك الشرطي حين ربط عيني، كنت أخشى أن ينكسر فأفقد بانكساره الدليل الذي سيرشدني إلى دورة المياه، أود الوضوء فأنا لم أصلِّ بعد. قلت: بسم الله؛ فتلاشت العتمة عن المكان، وتمطى النور في أعماقي، لكني بقيت في حيرة، أحدثني: أين ذهب الظلام..؟ لعله اختبأ خلف الباب الحديدي الذي يكسوه الصدأ، يترصدني..!

رحت أفتش عن باب آخر، غير أنه لا باب هنا سوى ذاك الذي يختبئ الظلام خلفه. عثرت أخيراً في إحدى زوايا الغرفة على صنبور ماء، وبالقرب منه فتحة في الأرض تفوح منها رائحة كريهة، تأكد لي أن هذا

هو المكان المخصص لقضاء الحاجة. توضأت وصليت وبقيت أسأل الله أن يساعدني للخروج من هذا المكان الذي أنا فيه، تذكرت "سلطان" الذي كان يحضر دروسي، ويقوم بالدعم المادي للمركز، وجالت بخاطري تلك الأموال التي كنت أستلمها من "تعز" و "إب"، بدا لي ساعتها أن ثمة وشاية وراء ما يحصل لي اليوم.

ترى هل وشى بي "سلطان" عند الألمان..؟

أثمة مكيدة دُبرت للتخلص مني ومن المركز..؟

لا إله إلا الله، ريثما تتجلى الحقيقة يجب أن أحسن الظن بالرجل.!

بقيت في هذا المكان خمسة أيام بلياليها، دون أن أقابل شخصاً أو أتحدث إلى آخر، غير ذلك الحاجب الذي يأتيني بالطعام والشراب، كنت أسأله عن سبب وجودي في هذا المكان؛ فيبتسم ابتسامة تقف بين الإشفاق والسخرية.

دخل علي صباح اليوم السادس مجموعة أشخاص حسني الهندام، لا يرتدون الزي العسكري، يضعون نظارات سوداء على أعينهم، وضعوا القيد في معصمي، وألبسوني كيساً أسود على رأسي، ربطوه في عنقي، فلم أعد قادراً على رؤية ما يحيط بي، أو فهمه، واقتادوني إلى حيث لا أدري..!

لم تكن المسافة بعيدة فقد اقتادوني راجلاً لبعض الوقت ثم وجدتني أصعد سلماً، كانت طمأنينتي قد تبددت فتأكد لي حينها أني في طريقي إلى المشنقة، ردَّدت الشهادتين، وتلوت آيات من القرآن الكريم وبعض الأدعية التي استطعت استحضارها في ذلك الوقت، كان هناك صوتٌ صاخبٌ آذى مسامعي، غير أنه بدأ ينخفض تدريجياً حتى اختفى نوعاً ما بعد أن أجلسوني على كرسي، بدأ المكان يتحرك كأنما زلزال عنيف قد ضرب المنطقة، غير أن الحركة سرعان ما تحولت إلى مسير يشبه سير المركبات الكبيرة ثم تحول إلى صعودٍ نحو السماء؛ فتأكدت حينها من وجودي على متن طائرة، حمدت الله وشكرته كثيراً على عودتي إلى بلدي، ظننتهم سيرحلونني إلى اليمن، كنت مشحوناً بالتوتر والحزن وفي حيرة من أمري، عدت أسألني:

ما الذي حصل..؟ لماذا تم اعتقالي بهذه الطريقة..؟ لماذا تركوني بالسجن كل هذه المدة دون أن يسألوني سؤالاً واحداً..؟ ما مصير والد الطفل الذي كان برفقتي، هل اعتقلوه هو الآخر..؟ لماذا ما زلت مكبلاً بالأغلال، ورأسي أسيراً لهذا الكيس..؟

أسئلة كثيرة تحتشر في رأسي، وهي تبحث عن إجابة في عين السحاب، غير أن الكيس الأسود يمتص كل شيء رافضاً أن يمنحني

بصيص ضوء.. مزيدا من الهواء.

كانت المسافة أطول من تلك التي قطعناها إلى ألمانيا، قلت لعل خط سير الإياب أطول أو لعلها الطائرة بصوتها المرتفع وكراسيها المهترئة أقدم من تلك التي قدمنا بها.

بدأ التوجس يزحف عبر المكان الضيق الذي تركه الكيس الأسود المكبل لرأسي، وكأني بدأت أزحف نحو حتفي.

ما زلنا في السماء رغم أن المدة الزمنية تضاعفت، ارتقى التوجس إلى مرتبة التوتر، بيد أني تداركت الانهيار بتفويض أمري إلى الله، ملاذي الأول والأخير، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فاستعدت الطمأنينة التي كادت تغادرني.

* * *

هبطت الطائرة أخيراً، كانت ساقاي متخشبتين من طول الجلوس فانتزعوني من مقعدي قبل أن تتوقف المحركات نهائياً، اصطدمت بهواء يختلف كلياً عن نسيم اليمن؛ فتيقنت حينها أني لست في مطار صنعاء، نصف ساعة أو يزيد قليلاً حتى تم نزع الكيس عن رأسي، كنت قد تعرضت لحالات تفتيش دقيقة، لكني هذه المرة جردت من كل ثيابي، وتم تفتيش الأماكن الحساسة من جسمي بطريقة مهينة جداً.

ما زلت مصفد اليدين، أخذوني إلى غرفة فيها: شرطيان، وشخص آخر يرتدي الزي المدني، تحدث إلي أحدهم وعيناه تتفحصاني بشكلٍ مفزعٍ، وهو يفسد هواء الغرفة بالدخان المتطاير من فمه، لم أفهم من حديثه شيئاً، فخاطبني الذي يرتدي الزي المدني بالعربية: "السيد جون" يسألك لماذا تكره "أميركا" وتدعو إلى قتالها..؟

كانت المفردات العربية دافئة حد الضوء.. لذيذة حد الثمالة.. عابقة حد الخذلان.. موجعة حد النزف.

ما استطعت الإجابة لفرط احتياجي للغة القرآن، بقيت مصلوباً أتأمل في فم العربي عله يتحدث مرة أخرى، كان بودي أن يستمر في سرد الأسئلة حتى أروي ظمأ قلبي المحموم وأسقي شفاهي، لكنه أبى إلا أن يشاركني الصمت، ونظراته المحرقة تستحيل دافئة حنونة كلما سقطت على وجهي موحية بأن ذهولي يثير الشفقة.

ما زلت أسمع أنيناً لا أرى مصدره، وعويلاً يصدر من الزوايا المظلمة بلا شفاه، وجدراناً تنفجر دماءً بلا جراح.. والكفر يزحف عارياً.

صرخ السيد "جون" صرخة ترددت أصداؤها في كل الأرجاء، غير أني لم أتح المجال للعربي لترجمة صراخه، بل سألته عن مكان تواجدي،

كنت لا أعلم أين أنا، ولم أعِ بعد ما الذي يحصل.

صحيح أن الوجوه تغيرت، والعيون أيضاً، لكن يبدو أن الممارسات السيئة بقيت على حالها أو كأنها في الحقيقة انتقلت من سيئ إلى أسوأ. ما زلت أحدق في وجه الشرطي الذي يصرخ، كنت أود معرفة الحقيقة المتوارية خلف المجهول حتى وجدتها -أخيراً- عبارة عن شرر يتطاير في وجهي، صفعة عنيفة أجلستني أرضاً، وتركت صور الآلام التي عشتها طيلة حياتي توقدني جمراً، فتحت عيني لأرى يد الشرطي الآخر تنسحب من وجهي تاركة وراءها سيلاً من دماء تخضب رئة الحياة.

تحسست حيرتي، وأنا أحاول فهم ما يحدث. أليس غريباً أن ألتقي بأناسٍ يشبهون عقارب الصخور؟! يظهرون أمامي بنفس الطريقة التي كنت قرأتها عنهم، يلدغون ثم يتحولون إلى كائنات بشرية من لحم ودم..!

بحثت عن زاوية قريبة لأرمي بجثتي المثخنة بالانكسارات والأوجاع ريثما أفتديها ذات نصر.. فلم أجد..!

كانت النار تلف الكون كله، وتلفني. امتنعت عن الإجابة وأنا أرى كرامتي تسحق تحت حوافر غيهم وصلفهم وغرورهم، غير أني خشيت أن يقضوا عليَّ، خصوصاً وقد طوقني عدد كبير منهم، فأجبت: لم

أحرض على "أميركا" بشكلٍ خاص، لكني دائماً أدعو إلى إعلان البراءة من أعداء المسلمين.. تذكرت آنذاك، أو لعل الصفعة هي من أيقظتني ذهنياً؛ ليعود بي شريط الذاكرة إلى الوراء متوقفاً عند خطبة الجمعة التي تحدثت فيها عن أزمة الرهائن "الأميركيين" في "إيران"، أنا في الحقيقة لا أكذب مهما كانت الظروف، وفي ذات الوقت قد يكون من وشى بي، نقل لهم كل شيء عني، ولعل صدق حديثي يخفف عني العقوبة كما يقولون؛ لذلك، قلت: نعم في خطبة من خطبي تحدثت عن علاقة "أميركا" بالخميني، وكيف أنها زرعته في "إيران" لينصرف العرب عن قضيتهم الأم "فلسطين" إلى عدوٍ آخر، وما حادثة احتجاز الرهائن سوى مكيدة جاءت بها "أميركا" ذاتها بهدف إظهار الخميني بالقوة التي تجعل عوام المسلمين يثقون به ويصدقون بطولاته وعداءه لـ"أميركا"، وهو في الحقيقة يعادي العرب ويضمر لهم الشر أكثر من أي عدوٍ آخر.

صوّبَ الشرطي سهام حقده نحوي، وأشار لأعوانه بإخراجي من حجرة التحقيق.

لحق بي ذلك العربي إلى الخارج، كنت على موعدٍ آخر مع اللغة العربية قبل أن أصل إلى سيارة الشرطة التي أقلّتني، صوت عربي في عتمة الإفرنج يسرجني:

- السلام عليكم يا شيخ..؟

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- أسأل الله أن يفك أسرك وأن يعيدك إلى أهلك سالماً غانماً.

- آمين، بارك الله فيك، أين أنا..؟

- أنت الآن في ولاية "كولورادو" الأميركية، في طريقك إلى سجن "ايه دي اكس فلورانش".

لم يتح لي الشرطي المزيد من الوقت، بل جرني بعنف، وأنا لازلت متشبثاً بتلابيب ذلك الأمل الذي ما كاد يومض حتى أفل.

قذفوا بي داخل عربة مخيفة...

* * *

قاطعني المحامي "كنت": ثم ذهبوا بك إلى السجن، لم يستطع المحامون الوصول إليك، لقد وضعوك في قسم المجرمين دون كرامة، وتم تعذيبك نفسياً وجسدياً قبل إكمال التحقيقات معك، لم يكن للإنسانية أي تواجد البتة أثناء التحقيق والمحاكمة؛ فأدانوك باستلام أموال من الخارج، واستخدامها لدعم الجماعات المعادية لـ"أميركا"، والتحريض على قتالها، وحكموا عليك بعشرين سنة سجن، ثم جاءت

أحداث سبتمبر 2001 فقدموك للمحاكمة مرة أخرى مع من اعتقلوهم في "أفغانستان" و"باكستان" وبقية دول العالم بتهمة الإرهاب؛ ليحكموا عليك بالسجن لمدة ثلاثين سنة أخرى دون أي مسوغ قانوني.. أعلم بباقي التفاصيل، لقد أسهبت كثيراً حتى صرفتني عن مواعيدي، غير أنني استمتعت بكل ما قلته، وأحزنني الظلم الذي لحق بك.

- : المعذرة سيد "كنت" فقد لُذت بالصمت طويلاً، وكان حتماً عليَّ أن أفضي إليك بما يشتعل بين جوانحي من تفاصيل موجعة عليِّ أستبدله بالشهيق الذي يزورني على مضض. قال "الشيخ محمد" ثم توقف لبرهة وسألني: لكن، قل لي ماذا فعلت بقضيتي..؟

- لم تتح لي الفرصة لأحدثك عن عجز فريق الدفاع عن عمل أي شيء، ذلك أن قضيتك لا تسير بالمسار الطبيعي الذي اعتدنا عليه في القضاء الأمريكي.

- ما الحل إذن..؟

- ما أعرفه أن الأميركيين لا يخشون الجماعة السلفية -على الأقل- في هذه الفترة نظراً لانشغالهم بالجماعات المعادية الأخرى، بل إن البعض ذهب إلى القول: بأن هناك علاقة وطيدة تربطهم ببعض، يبدو أن الأمر التبس عليهم في قضيتك، فلم يفرقوا بين السلفية الدعوية والسلفية

الجهادية؛ لـذلك ثمـة بـوادر الآن لإزالـة اللـبس بعـد تـدخل الـسفير السعودي بقوة، وتفهم السلطات الأميركية لمظلوميتك.

* * *

تدخل السفير الأميركي في اليمن أيضاً، بعد تواصله مع السلطة، ولعب دوراً محورياً مع السفير السعودي في القضية، ولعل صفقة خفية أبرمها "السي آي إيه" مع تلك الأطراف لإطلاق سراح الشيخ شريطة التوقيع على أوراق تضمن عدم ملاحقتهم قانونياً بعد الإفراج عنه، وأن يظل في "أميركا" تحت نظرهم.

أبلغتني المحكمة بموعد إطلاق سراحه إذا تمكنت من إحضار ضمانة من أحد اليمنيين المقيمين في "نيويورك"، فرحت بالخبر، وتركت الأوراق التي كانت في يدي، ودلفت نحو الباب لا أدري إلى أين أنا ذاهب، حين وصلت سيارتي أطرقت قليلاً وبدأت أفكر ما العمل؟

الرجل سيخرج من السجن، وبالتأكيد سيكون تحت رقابة أجهزة المخابرات، والكل يعلم أنه متهم بقضايا إرهاب، وهذه القضايا في الواقع مخيفة جداً، ولن نستطيع الحصول على شخصٍ يمنحه الضمان الذي تطلبه المحكمة!

بدا المكان مثل مرفأ لا يحده شاطئ، اتسع كل شيء أمامي وصارت تساؤلاتي جمراً تسعَّر في محور اللحظة، دخلت في نوبة شرود رهيبة، ما زلت غارقاً في التفكير أصارع الأرض بقدميَّ تارة وأجوب الشارع الممتد ذهاباً وإياباً أعد خطاي تارة أخرى، عاد إلى ذهني أمر ذلك الشخص الذي كان يهاتفني دوماً يسأل عن الشيخ وعن مجرى محاكمته، أحاول تذكر اسمه! أقلب هاتفي علّي أجده بين الأسماء المدونة في سجل الهاتف، غير أن كثرة الأسماء لم تسعفني كي أصل إليه.. نفضت عني خلل الأفكار، وأبقيت عيني شاخصة إلى البعيد أملاً في الوصول إلى اللوحة الذهنية التي يرسم عليها دماغي كل الذكريات، بقيت أتنقل بناظري بين الألوان المختلفة علّ إحدى الخلايا تقوم بإطلاق إشارة تحفيزية إلى ذاكرتي، فأستعيد اسم ذلك الرجل الذي آمل أن يساعدنا للحصول على ضمان يمكن بموجبه أن نكسر تلك الأغلال المكبلة لحرية "الشيخ محمد" المعتقل منذ أواخر عام 1995م، مرت أكثر من ثلاث ساعات دونما فائدة، ذاكرتي لا تود أن تسعفني في هذا الوقت العصيب، قررت أن أعود إلى السيارة، وأبدأ حالاً بالبحث عنه في متاجر اليمنيين، كي لا يسيل الوقت بين أصابع الفرصة المتاحة.. أدرت مفتاح تشغيل السيارة وانطلقت بها يميناً، ليست سوى أمتارٍ حتى أمسكتْ ذاكرتي بـ

"محسن" وسلمته لي، توقفت جانباً وشرعت أفتش في هاتفي عن رقم "محسن" حتى وجدته، وعلى الفور اتصلت به، فرح باتصالي كثيراً، وتهللت أساريره لاقتراب موعد خروج الشيخ، قلت له: إن المحكمة طلبت ضماناً لخروجه، لم أكد أكمل حديثي حتى قال لي: "عندي عمارة خمسة دور؛ لكل دور شقتين، ومعي اثنين محلات: واحد سوبر ماركت، والثاني 99 cents باقدمهن ضمانة، هل يكفين؟!" قلت له: بالتأكيد العمارة وحدها تكفي، صاح مبتهجاً، وطلب مني الحضور للتحرك إلى الولاية التي يحاكم فيها الشيخ؛ لتقديم الضمان، قلت له وقد امتلأت فرحاً: لقد نقلوه إلى "نيويورك" بعد أن حكمت المحكمة ببراءته؛ لذلك سنقدم الضمان هنا، انتظرني غداً العاشرة صباحاً.

ذهبنا إلى المحكمة وقدمنا الضمان، كنت أخشى أن يتردد عن القيام بذلك؛ كون قضايا الإرهاب مخيفة والكل يتحاشاها، غير أني تفاجأت بشجاعة "محسن" ومشاعر الفرحة التي غمرته، قال لي وقد ارتسم الفرح على محياه، ويده الكريمة تمتد من قلب مفتوح لا يقل فرحاً: "والله لو يطلبون كل ما أملك من أجل أن يخرج الشيخ ما تأخرت، هذا رجل فاضل ومن خيرة أبناء اليمن، والوقوف إلى جانبه واجب ديني وأخلاقي ووطني".

- خير ما فعلت، لم يبق أمامنا إلا أن نذهب بعد يومين لاستلامه، لكن أين سيقيم..؟

- "بالتأكيد عندي، وسأوفر له عمل بإذن الله، لكن قل لي: هل سيمنحونه إقامة أو ماذا"..؟

- تقدمت بطلب إلى "المجريشن" بمنحه إقامة لمدة ستة أشهر، وبعدها سأقدم له طلب اللجوء الإنساني؛ ليستطيع من خلاله العيش بأمان، ومن ثم نرى ماذا نصنع بخصوص الحصول على الإقامة الدائمة، أتمنى أن أوفق في ذلك، فقد أقنعته بالتأقلم مع العيش في "أميركا"، والصبر حتى نجد الوسيلة القانونية التي تسمح له بالعودة إلى بلده، إنه متعلق بوطنه بصورة مذهلة.

***

عصر التاسع من فبراير عام 2003م خرجتُ من السجن كمن عادت إليه الحياة بعد ممات، كان المحامي "كنت" ومعه "محسن" في استقبالي، أخذاني إلى السيارة، وحالما تحركت طفقنا نغوص بين البنايات الزجاجية الشاهقة التي تنتشر بتناسق بديع على مدى النظر؛ لتمنح المدينة طابعاً سحرياً، وجدتني أتلفت حولي كمن يرى لأول مرة في

حياته سيارات وبنايات.. كل شيء هنا مختلف، الشوارع واسعة، والسيارات منتظمة كأنها مرسومة بريشة فنان انتهى من تشكيلها للتو، يا إلهي، ما هذه المدينة التي تعلوها سماء نقية، ويحيطها بحر فيروزي لا سناء كسنائه..؟

- أين نحن يا "محسن"، وإلى أين وجهتنا..؟

- "هذه "نيويورك" وسنذهب إلى البيت يا شيخ، تأكل وترتاح، وبعدها نذهب؛ لترتيب وضعك في العمل والسكن أيضاً، المهم تشد حيلك عشان تعرف أيش مع المغتربين".

- حفظك الله وبارك فيك، لا أعلم ماذا كنت سأعمل من دونك بعد الله أنت وهذا الرجل الذي أرسلته السماء؛ لإنقاذي.

❋ ❋ ❋

بدا "كنت" متعباً، لم ينبس ببنت شفه؛ لقد اكتفى بهز رأسه، بينما بقيت أتأمل قدري الذي يدفعني باتجاهٍ ما، هو من يموسق إيقاعه، ثماني سنوات في السجن دون جريرة غير هذه اللحية والثوب القصير اللذين أتشبث بهما معتقداً أنهما الإسلام حد قول "جبران" المصري رفيقي في السجن، "جبران" الذي كنت أنصت إلى حديثه الفلسفي بسمعي وقلبي

وروحي وعقلي، باذلاً كل جهدي لألتهم حتى الفواصل والصمت بين حديث وآخر، لكن هل ما قاله عني حقاً؟ والأهم من ذلك هل بإمكاني أن أمارس دعوتي في هذا البلد إن خففت لحيتي أو حتى أزلتها وصرت حليقاً كهؤلاء النصارى..؟

أتذكر أنني في بداية دخولي السجن: كنت أختلف مع "جبران" في الكثير من المسائل التي نناقشها، كانت الصورة الذهنية التي رُسِمتْ لديَّ حول بعض القضايا العصرية ما تزال هي المحرك الحقيقي لأفكاري.. بدءاً بالتلفزيون والأطباق الفضائية، ومروراً بالتصوير والألعاب الرياضية، وتوجسي من تعليم المرأة، وقيادتها للسيارة، ومزاحمتها للرجال في سوق العمل، كنت أرى تحريم لعبة كرة القدم إلا بشروط؛ كأن يكون عدد الفريق أقل أو أكثر من 11 لاعباً مخالفة للكفار..!، وتحريم استخدام المرأة لأدوات التجميل حتى وإن كانت تريد التزين لزوجها؛ كون ذلك العمل تغيير لخلق الله، كما كنت أرى تحريم لبسها الكعب العالي؛ لأنه يصدر صوتاً عند مشيها، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، وتحريم الاحتفالات بالأعياد والمناسبات التي ما أنزل الله بها من سلطان، فضلاً عن تحريم الاحتفال بعيد الحب، وتبادل الهدايا والورود، غير أن

"جبران" تمكن من تغيير مفاهيمي، وإقناعي أن أترك التشدد والتضييق الذي يختطف الاعتدال، وأن أتخلص من نظرية سد الذرائع التي توسعت عبر عقود حتى أنها لم تترك شيئاً إلاّ شملته؛ فشقت على المسلمين، وضيقت عليهم واسعاً، ودفعت بعضهم إلى هجر فرائض الإسلام وتعاليمه كليةً، بينما الدين الإسلامي الذي يقوم على الرفق والرحمة بالإنسان، وعدم تكليفه فوق طاقته ليس بهذه الصورة القاتمة التي تحاول بعض الجماعات أن تصوره بها.

كنت قبل دخولي السجن والجلوس إلى "جبران" لا أقرأ سوى الكتب ذات الاتجاه الواحد التي ينصح بها مشائخ السلفية مع تغييب تام للجوانب الثقافية والفكرية التي تعمل على جلاء العقل البشري وانفتاحه حيال القضايا العصرية، لقد عملت النقاشات الواسعة التي خضت غمارها على تنمية فكري، وفتح آفاق جديدة لتفكيري بحيث تمكنت من كسر الأغلال التي كانت تحكم سيطرتها على عقلي، وشرعت أخوض غمار البحث والقراءة، وبدأت أضع المسائل كافة التي كنت أعدها من المسلمات على طاولة النقاش.

لكن هل استفدت من كل ما قرأته في السجن لشحرور وجمال البناء وجلال الدين الرومي وكثير من الروايات والكتابات الفلسفية ومن

نقاشاتي مع صديقي "جبران" حول السلفية ونزوعها إلى تقديم النقل على العقل، وأهمية فقه المرحلة، وحقيقة أن تمثل الإسلام في التعامل والسلوك أفضل بكثير من حفظ كتب التراث؟

إن تخلصت من محنطاتي الفكرية البائسة وتعصبي لأفكار بقيت لسنوات اعتبرها من المسلمات، هل بإمكاني أن أكون مؤثراً هنا؟

ثمة قلق ميتافيزيقي خفيف وغامض يفرض حضوره في صدري الآن، وكوم من الأسئلة يتغرغر في حنجرتي، لا أعلم إلى أين تأخذني الأقدار؟

وجودي هنا يتصادم مع ما تربيت عليه ونشأت، لا يمكنني العيش في هذا البلد، النساء شبه عاريات، والحياة غير طبيعية مطلقاً، طوال الطريق التي مررنا بها لم أجد مسجداً قط، أهذا هو الانبهار الحداثي الذي كان يبشرني به "جبران"؟

يبدو أنني "لم أرَ من الجمل إلا أذنه" كما يقول المثل اليمني، وأن سفينتي تستعد؛ لترخي حبالها إيذاناً بالضياع..!

- يا إلهي، ماذا تخفي لي الأيام؟!

- أعجبتك "أميركا" يا "شيخ محمد"؟ سألني "كنت" ليقطع حبل أفكاري.

- لم أرَ شيئاً بعد سوى بنايات وسيارات ونسوان "مقعشات"!

- هههههه ستعجبك حتماً، وسيمنحك وجودك في "أميركا" فرصة ثمينة لتتعرف على المجتمعات الغربية، الأميركي على وجه الخصوص، ربما تجد اختلافاً كبيراً عن الصورة التي رسمتها في ذهنك عن الغرب.. عموماً، سأنزل في المحطة القادمة، ولنا لقاء، سأزورك بين الحين والآخر.

كان الليل قد أسدل ستاره، وبدا البحر من بعيد أسود اللون، فضي الحواف، أما المدينة فمضيء كل شيء فيها، تشتعل أضواءً وضوضاء، شعرت بأشياء سيئة تحدث في ليل هذه المدينة الصاخبة، لا أعلم ما الذي دهاني، ربما الإرث الذي أحمله في عقلي.

- حمداً لله على السلامة "شيخ محمد"، لا تعلم مدى سعادتي بخروجك من السجن، قال "محسن".

- الله يسلمك ويبارك فيك.. هل وصلنا؟

- نعم.

أدخلني إلى المكان المخصص لنومي ثم ودعني وذهب إلى عمله، كان هناك طعام وسجادة للصلاة وثلاجة ملأها بالفواكه والمشروبات،

وهاتف ببطاقة ورصيد، كم هو كريم هذا الرجل! وكم أنا مدينٌ له على موقفه النبيل هذا!.

***

أخذت حماماً ثم أكلت، وصليت، وذهبت إلى الفراش، وضعت رأسي على الوسادة فوضعت الأفكار كل ثقلها على قلبي، هواء الذكرى يلفحني بسخونة قاتمة، تنهدت بكبرياء الصابر المستغفر، وشرعت أجفف منابع الألم، وأمسح عفن الغياب القسري وآثار النكاية التي كادت تودي بي.

بقت عيناي شاخصتين في الجدار تتفحصان ما حدث ويحدث، تسعيان لاقتناص غفوة عابرة تعيدني إليَّ دون جدوى، عاد بي شريط الذاكرة إلى القرية وإلى زوجتي، والبنتين، والأولاد الثلاثة، وأسرة مترامية الأحزان، شعرت بتنهيدة عميقة تشق تلابيب صدري ونشيجٍ صارخٍ يمزق نياط القلب. يا ترى ماذا صنعت بهم الأيام في غيابي..؟

أردت التخلص مما أنا فيه، أخذت الهاتف، وبدأت مكالمة طويلة مع والدي ووالدتي وزوجتي، لم يتمالكوا أنفسهم من الفرحة، فرحوا كثيراً بخروجي وفرحوا أكثر كوني سأشتغل هنا، وأكون مغترباً كباقي أبناء مديرية "الشِّعِر"، المغترب منهم يعول أسرته بأكملها وأربع أو خمس أسر

أخرى، غير أن أبي بدأ يسرد لي تفاصيل ما حدث خلال فترة غيابي، وكيف تحمل مشقة تكفله أبنائي وزوجتي، خصوصاً بعد خروج إخواني من السعودية، قال: إن أبناء القرية الذين كانوا مغتربين بالسعودية عادوا كلهم، بسبب القوانين الجائرة التي أقرها النظام السعودي مؤخراً للتضييق على المغترب اليمني، فالنظام السعودي كلما تعثرت مفاوضاته مع النظام اليمني، أو تأزمت العلاقات بينهما، عاد لينتقم من المغتربين، الناس اليوم يعيشون حياة مأساوية؛ لأنهم كانوا يعتمدون في معيشتهم على عائدات المغتربين، كما أن الأسعار صعدت بشكل جنوني خصوصاً بعد حرب 94 المشؤمة.

كان أبي يتحدث وفي صوته حزن البلد كلها، ونشيج صارخ مزق نياط قلبي، ودعته بلطف وقد زادني حديثه ألماً فوق ألمي، أنا الذي لا أعلم ماذا أعمل وإلى أين أسير في هذه المدينة الصاخبة العارية، أشعر بصدى حزن أبي يتردد في الغرفة، أنا وحدي يا أبتاه في هذا المكان أئن لحزنك، ولما تسكبه عبر حديثك المكلوم من متاعب، لا أعتقد أنني نمت تلك الليلة، وإن غفوت فلدقائق.

جاء "محسن" صباح اليوم التالي، لا وقت لديه للأحاديث خارج "البزنس":

- "تعال من شان أرويك المحلات حقي، سوبر ماركة و99cents".

- أليس فيها خمور وخنزير؟

- "هههههه المحلات حقنا فيهن بيرة فقط".

- أعوذ بالله تريدني أن آكل أنا وأولادي وأهلي من الحرام بعد هذه السنين!

- "ما بش حرام يا شيخ محمد، هي بيرة بس، وبعدين كل محلات اليمنيين فيها بيرة".

- والله لو أهلك من الجوع ما أشتغل إلاَّ في محل حلال.

- "ولا يهمُك، الآن أتصل "بإبراهيم" الذي ينزل لنا سيجارة، وأقل له يدور لك عمل في دكان ما بش به بيرة، ارتاح، ومتى ما اشتيك تنزل تتودر(١) وتشل لك أكل، أنا نازل الدكان، دوامي يبدأ الآن".

تركني "محسن" لوحدي دون إفطار، وذهب إلى عمله، محسن الذي يعد الأفضل بين المغتربين من حيث مواقفه ورجولته، ماذا عن الآخرين؟ يبدو أنني أقف على مشارف مرحلة هي الأكثر صعوبة من سابقاتها.

❋ ❋ ❋

---

(1) مفردة عاميّة تستخدم في لهجة الشِّعر وبعدان ومعناها تتجول.

بقيت عشرة أيام في تلك الغرفة، كنت أخرج خلال هذه الفترة إلى الشارع ثم أعود مسرعاً، يا لهول ما أراه، كل شيء مباح في هذا البلد، إيماني يوشك أن يتجندل، بقيت أحصي الأيام باحثاً عني بين ساعاتها حتى وجد لي "إبراهيم" عملاً في أحد محلات اليمنيين.

مرت سنة، وأنا أتنقل من محل إلى آخر، لم أستقر في عمل، ما استطعت التأقلم مع واقعي الجديد، الحياة في هذا البلد متعبة جداً، والناس أيضا، كل شيء هنا مختلف، حتى من كنت أعتقد أنني سألوذ بهم من عذاب الحنين وقسوة الغربة تركوني فريسة لأنياب المجهول، كنت أعلم أنني أسير على حد السيف الذي قد يدميني في أي لحظة، غير أني أعشق المغامرات.. أعشق السفر إلى المجهول وإن على كف عفريت.

كانت وسادتي تبتلُّ بالدموع كل ليلة حين أخلد إلى فراشي، لم يساعدني أحد، لقد تخلى الجميع عني، وأصبحت مثاراً لسخريتهم، ضاقت بي الأرض، وضقتُ بي، قررت أكثر من مرة أن أترك هذا البلد وأعود إلى اليمن بأي طريقة، ولو عن طريق التهريب، لكني في كل مرة كنت أتوضأ وأصلي صلاة الاستخارة وأعقبها بدعاءٍ طويل، حين أفرغ منه أجد ارتياحاً في صدري يجعلني أتخلص من كل تلك الوساوس وتزداد قناعتي بمواصلة المشوار الذي لا أدري إلى أين يأخذني!

كان موضوع الإقامة في هذا البلد الذي يموت فيه الإنسان مقهوراً يسلبني تفكيري، ويقض مضجعي، ويتمثل أمامي شبحاً أسود يرمد زهو الألوان من حولي، تحدثت إلى "إبراهيم" طالباً منه أن يساعدني في ترتيب وضعي، فلم يتأخر، جاء لي بواحدة سمراء من "جامايكا" تعمل ممرضة في أحد المستشفيات، اتفقنا معها على أن يكون زواجنا على الورق مقابل عشرة آلالف دولار أدفعها عقب استلامي "الجرين كارد"، لكنها كانت سريعة الانفتاح لحقائب البؤساء من المغتربين، فلم تلتزم بالاتفاق الذي أبرمناه، وظلت تبتزني دون تقديم أي معاملة، شعرت حينها أن الزواج على الورق مجرد مصيدة للابتزاز؛ فقررت أن أخوض زواجاً حقيقياً هذه المرة، تزوجت بواحدة جميلة من "الدومينيكان" تتحدث الأسبانية أكثر من الإنجليزية، ولديها شقة، لكنها تكبرني بعشرين عاماً، قلت: لعل فارق السن سيجعلها أكثر تفهماً لوضعي وأكثر حرصاً على مساعدتي، لكنني اكتشفت بعد يومين من زواجنا أنها مدمنة مخدرات، أخبرت "إبراهيم" بما كنت أظنه اكتشافاً خطيراً، فرد بكل برود: إن أغلب الناس يتعاطون مثل هذه الأشياء، طالباً مني أن أصبر عليها حتى أنال مبتغاي، لكنني في الحقيقة لم أستطع تحملها والعيش معها إطلاقاً، كنت أخشى أن يصل إليها ذلك الشخص الذي يترصدني ويشي بي

فيقنعها بأن تضع لي المخدرات في أنفي أثناء نومي أو تدسه لي في شراب أو طعام، أحسستُ بخوفٍ شديدٍ، طلبت من "إبراهيم" أن يخلصني منها، وإنهاء هذه الزيجة التي باتت عبئاً يضاف إلى قائمة أعبائي ومتاعبي، كان "إبراهيم" على علاقة جيدة بها منذ أن كانت زبونةً في "دكان" والده الذي كان يعمل به قبل أن يتفرغ للتوزيع، فتمكن من إقناعها، بعد جهد استمر لشهور، بالقبول بـ 2000 دولار مقابل الطلاق.

طلب مني أن أخوض تجربة ثالثة، فقلت له والضحكة تملأ فضاءاتي بعد أن تخلصت من أغلال تلك التجارب الحمقاء: السجن أحب لي مما تدعوني إليه. كنت قد أيقنت أن مثل هذه التصرفات ستأخذ ما تبقى من راحة بالي وأنني – قطعاً– لن أتمكن بشكل أو بآخر من التماهي مع هذه الأصناف من البشر.

***

زارني "محسن" ذات يومٍ، وشعر بمعاناتي.. دعاني إلى خارج المحل وحدثني بصوت منخفض:

- "خلهم يحاسبوك، وتعال الأسبوع القادم اشتغل معي قد خرجنا البيرة من المحل، ولا يهمُك إلا معاش حلا، لو جلست على هذا الوضع باتطحس يا شيخ".

- والله، ما عدت أدرك ما أنا عليه، لم أستطع الاحتفاظ بدولار واحد، كل ما أستلمه أرسله إلى اليمن، ثمة أسر كثيرة تنتظرني نهاية كل شهر، ثم إن هذه مناطق "عبيد" كثيرة المشاكل، وأنا غير قادر على فهم اللغة، تعبت بالفعل.

- "تعال ولا يهمُك إلا أدبرُك".

عدت إلى تلك الغرفة التي ضمتني عند خروجي من السجن، هذه المنطقة أكثر أمانا من كل المناطق التي اشتغلت فيها، مناطق البيض أكثر أماناً، يبدو أن العمل هنا أفضل!

قضيت يومي الأول مع "غويندا" بطلة رواية الجريمة النائمة لـ"أجاثا كرستي"، وهي تنتقل منفردة إلى منزلها الحديث باحثة عن الجمال والدفء والأمان، في انتظار زوجها الذي لا يأتي؛ لتعيش تفاصيل وكوابيس الوحدة.. الكوابيس التي جعلتها ترى امرأة مقتولة في فناء المنزل، لتصل بها إلى اكتشاف جريمة قتل حصلت بالماضي في ذات المنزل الذي كانت تقطنه منذ طفولتها، وأن المجني عليها هي زوجة أبيها. تدهشني هذه الأديبة الإنجليزية، وهي تتربع على عرش الإثارة والتشويق الممزوج بالرعب، لقد لذت بالقراءة هروباً من معاناة الوحدة والانزواء، فوجدتني أمام مشاهد مرعبة أخذتني إلى حيث لا تود

نفسيتي المتعبة؛ لذلك كان حتمًا علي أن أنتقل في اليوم التالي إلى قصة الحب التي عاشها "فلورنيتينيو أرثيا" مع "فرمينيا داثا" في رواية "الحب في زمن الكوليرا " التي بدأت برمشة عين من نافذة منزلها؛ لتدوم أكثر من خمسين عامًا، حدث خلال تلك الفترة بعض الانكسارات العشقية التي أدت إلى زواجها بشخص آخر، غير أن الحب عاد ليجدد نفسه؛ ليكتشف العاشقان في نهاية العمر الذي يقال: إنه لا يصلح للحب أنهما قد وصلا إلى مرحلة ما بعد الحب، وهي مرحلة الحب لذات الحب.

في اليوم الثالث وضعت ما تبقى من الروايات التي عشقت قراءتها أكثر من أي شيء آخر على رف الغرفة، حتى يتسنى لي سبر أغوارها كل مساء، وبدأت العمل مع "محسن"، المنطقة راقية فعلاً، والزبائن متعلمون، لا يتزاحمون وقت دفع الحساب ولا يصدرون صوتاً، كلٌّ يأخذ احتياجاته وينصرف دون ضجيج ولا مشاكل، الحياة هنا تختلف تماماً عن تلك المناطق المرعبة التي عملت فيها خلال السنة الماضية، أحببت العمل مع "محسن"؛ لذلك كنت أقضي يومي بين "الشلفات" مثل: عصفورٍ أنطُّ هنا، و أحطُّ هناك.

- : "تعال اشتغل على "الرجسته" وأنا أنتبه لك، أما لو جلست تمسح قوارير بايضيع عمرُك ولا فهمت شيء"!، قال "محسن".

- ماذا أقول للزبائن، ما زلت لا أفهم شيئاً في الإنجليزية.

- "اعمل نفسُك أعجم هههههه، المهم احسب لهم، واستلم الزلط".

ما قاله محسن أرحم من تلك الكلمات التي كنت أسمعها أثناء عملي في "براهول" و"البرنس" و"رتلر رولد"، عندما كنت أختفي وراء الثلاجات، وأبكي حينما يسخرون مني، ومن بقايا لحيتي، وعدم فهمي لطلبات الزبائن، وعدم قدرتي على تحدث الكلمات الإنجليزية بطريقة صحيحة، لقد تعلمت الكثير خلال تلك الفترة، وأدركت حجم المعاناة التي يعيشها المغترب اليمني في هذا البلد، خصوصاً الذين دخلوا "أميركا" وهم كبار في السن.

لا أعلم لماذا يصر اليمنيون على فتح محلات تجارية في مناطق السود رغم المشاكل التي يتعرضون لها؟

أغلب محلات اليمنيين في مناطق "العبيد"، ربما لأنهم أكثر شراءً من البيض، طباعهم تشبه طباع المهمشين في اليمن (يومهم عيدهم) كما يقولون في اليمن، لا يهتمون بتوفير المال، فكل ما يحصلون عليه يصرفونه في ذات الوقت.

بدأت العمل على "الرجسته" بمساعدة وتشجيع "محسن"، كنت قد أخذت من لحيتي وتخلصت من "الغترة" التي كنت أضعها على رأسي، ومشطت شعري، وبدأت بارتداء البنطلونات، والاهتمام بمظهري، وفي ذات الوقت لم أتنازل عن مبادئ الإسلام وقيمه قيد أنملة، لا أشتم الغرب ولا أنتقص من أخلاقياته، ولا أدعُ إلى القضاء على حضاراتهم وإبادتهم كما يفعل البعض ممن يسمون أنفسهم دعاة، بل كنت متورعاً رحيماً حتى في دعائي، أصلي فروضي في وقتها، وأرعى الأمانة، ولا أتعامل بالغش والخداع، ولا أكذب، حتى أنني ذات مساء شتوي ماطر وجدت محفظة ملقاة بالقرب من جهاز الـ "إي تي إم"، سألت الزبائن الموجودين في "الدكان": من فقَد شيئاً؟.. أجابوا بعد تحسس أنفسهم لا أحد.. أخذتها وخبأتها، قلت: حين يشعر صاحبها بفقدانها سيعود ليسأل عنها، وسأسلمها له، لكنه لم يعد، انتظرته أكثر من أسبوع دون فائدة، قلت: سافتحها وأبحث بداخلها عما يدلني على صاحبها، غير أني حين فتحتها لم أجد سوى: ألف ومائتين وعشرين دولار، وبطائق ائتمان، ورخصة قيادة سيارة، وأوراق أخرى، كنت أتأمل وجوه الزبائن علي أجده بينهم بعد أن أعود إلى صورته في رخصة القيادة، مر أسبوع آخر وأنا ما زلت أبحث عنه دون جدوى.. في أول يوم من الأسبوع الثالث وجدته يدخل من باب الدكان فركضت مسرعاً نحوه، ناولته المحفظة

بعد تأكدي أنه صاحبها، قلت له وقد ترجم الحديث بيننا "جورج" اللبناني (موزع العلاجات والكروت): إنني احتفظت بها بعد أن عثرت عليها قبل أسبوعين، وإنني انتظرته ولم أجد وسيلة للتواصل معه.. أخذها من يدي وهو مصاب بالدهشة؛ كونه لم يتوقع أن هناك من سيقوم بإعادتها إليه، بعد أن فقد الأمل بالعثور عليها، قال: إن المحفظة مصنوعة من جلد التمساح أهدتها له أمه عند عودتها من "فيتنام"، وأنه بحث عنها في أماكن كثيرة، ولم يخطر على باله أن يكون قد فقدها هنا، وأنها بالنسبة له أهم مما بداخلها، لكنه حين فتحها ووجد كل شيء فيها كما هو زادت دهشته واحتضنني، حاول أن يعطيني مائة دولار كمكافأة لكني رفضت، فسألني بغرابة: لماذا أعدت لي محفظتي وفلوسي؟ أجبته بأن ديني يأمرني بذلك.. حملق في وجهي باندهاش ثم شكرني وانصرف، أخبرني "جورج" بعدها أن مكسيكية جميلة أمسكت به صباح ذلك اليوم لتحدثه عني أيضاً، كيف أنها تأتي إلى الدكان بقصد إغرائي وبطرق مختلفة كأن تنحني لأخذ الآيسكريم من الثلاجة فترفع ثيابها الخارجية كي تظهر المناطق الحساسة من جسدها، أو أن تأتي إلى أمامي متمايلة وقد ارتدت ثياباً شفافة فتكشف صدرها وتبرز حلمات نهديها؛ محاولة ممازحتي والتقرب مني، لكنني لا التفت إليها، ولا أعرها اهتماماً، رغم أنها فعلت ذلك أكثر من مرة، وفي كل مرة حين تيأس مني تعود لإغواء

أحد العمال أو الزبائن، قال: إنها سألته عن السبب الذي يجعلني مختلفاً عن البقية، فأجابها بذات الإجابة التي أجبت بها صاحب المحفظة.

كنت أغض طرفي ما استطعت، "زبونة" واحدة هي التي كانت تلفت انتباهي -دائماً- فأطيل نظري إليها كمن لم يرَ امرأة في حياته قط، لم أكن مولعاً بالنساء، إنما برشف رحيق هذه الأنثى النادرة، وبذلك الفضول الجارف الذي يسبق الحب، هي في الحقيقة مختلفة عن الأخريات في كل شيء، ابتداءً من ملبسها وسلوكها، وأشياء كثيرة، بالرغم من أن شعرها مكشوف إلا أنها لا ترتدي ملابس عارية، ولا ضيقة، ولم أجدها يوماً متحلقة يد رفيقٍ لها كما تعمل الأخريات، تشتري حاجياتها ثم تغادر بصمت، كنت أسترق النظر إليها حينما تكون منشغلة باختيار ما تريده من الرفوف والمدى رحب أمامي ومنعش، وعندما تصوب نظرها نحوي أستحي وأصرف ناظري إلى أي مكانٍ آخر غير عينيها، كنت أخشى أن تحدثني فلا أستطيع فهم ما تقوله؛ لأرد عليها.. صحيح أن غالبية النساء في هذه المنطقة جميلات، غير أن جمال هذه الأنثى مختلف كثيراً، وملامحها رقيقة وناعمة وجاذبة، حين رأيتها لأول مرة شعرت وكأنني أعرفها منذ زمنٍ بعيد، ليزداد يقيني بصحة الرأي القائل: بأن هناك حياة روحية قبل الحياة الدنيا التي نعيشها، سابقة وجودية قبل

الميلاد، كنا فيها عبارة عن أرواح غير ملتصقة بالجسد الذي يتعب، ويمرض، ويشيخ، ويموت، أرواح تلتقي؛ لتأتلف أو تختلف، فأحياناً تمر علينا أحداث وحوادث نشعر بأننا قد رأيناها من قبل، كأن نلتقي بشخصٍ لأول مرة، ونشعر بأنه مألوف أو كأننا نعرفه من قبل، بينما نلتقي آخر لأول مرة؛ فنشعر بأننا لا نطيقه، لهذا فإني أمام حقيقة أثبتتها تلك الروح التي يموسقها غسقي القديم بآية الفلق.

مر عام آخر منذ خروجي من السجن ولم أحصل بعد على الإقامة، وفي ذات الوقت لم أر المحامي "كنت" قط، يكتفي بين الحين والآخر بالاتصال للاطمئنان علي ثم يغلق سماعة الهاتف دون أن يخبرني بشيء مما أنتظره منه.

"محسن" يطالبني بشكل شبه يومي بتصحيح وضعي إما بمتابعة موضوع اللجوء أو الزواج بأمريكية للحصول على الإقامة، بالإضافة إلى استراق جزء من وقت عملي لدراسة اللغة الإنجليزية في معهد قريب من العمل.. كم هو عظيم هذا الرجل!، يكتنز طيبة وكرماً وروعة، يخجلني باهتمامه بي وشعوره النبيل تجاه رجلٍ تقطعت به سبل الحيلة لإدراك ما يجب عليه فعله.

* * *

رن جرس هاتفي فإذا بالسيد "كنت" يطلب لقائي، كنت قد أنهيت دوامي حينها، فعرضت عليه أن أنتظره في الخارج حتى يأتي، "محسن" رجل طيب لكنه في الحقيقة رجل عملي وحازم، لا يتعامل داخل محله بغير العمل، لا يحب حتى الأحاديث الجانبية، ولا يمازح عماله، ولا يغفر الخطأ، وإن كان بسيطاً، لكن رغم ذلك يقف إلى جانبهم في كثير من القضايا، ويهتم بهم أيما اهتمام، لا يسمح لأي منهم بالتأخر عن الدوام، وإن لدقائق فقط، أو الانشغال بغير العمل، إن حدث ذلك يتغير وجهه، ويقوم بتوبيخهم بطريقةٍ مهينة، دائماً يردد: "من لا يحترم مواعيد عمله لا يحترم الآخرين".. لذلك فضلت أن ألتقي "كنت" خارج الدوام.

أسندت ظهري إلى جدار العمارة المجاورة لعمارة "محسن"، سكن قرص الشمس فوق الأفق الغربي زمناً ثم اختفى على عجل، كانت أسراب الظلام تتأهب للوثوب على صدر المدينة؛ لاحتلالها، بينما توقفت سيارة فارهة في الموقف القريب مني، خرج السائق من مقعده، وعاد إلى المقعد الخلفي للجلوس بجوار امرأة فتحت ذراعيها لاحتضانه على الفور، أغلق باب السيارة بينما بقيت النافذة مشرعة، صرفت وجهي عنهما حينما وجدته على حدود شفتيها وقد طوقها بذراعيه، شغلت نفسي بالهاتف أقلب صفحاته علّني أنصرف عن هذه الخطيئة التي تُرتَكَبُ

أمامي.. لم يأتِ المحامي بعد، سرت إلى أسفل الشارع لبعض الوقت، وقد حبست غضبي، ولذت بالصمت ثم عدت أدراجي خشية أن يأتي ولا يجدني بانتظاره، ثمة شرطيان يتوجهان نحو السيارة، لقد أوصدت النافذة وتوارت المسافات، وبدأ الضباب يغزو زجاج السيارة التي تهتز وتتمايل، بقيت أرصد ما يحدث، أنا الذي لم أرَ بحياتي كلها فعلاً كهذا قط، قلت لنفسي: لعل الشرطيين يأخذانهما إلى السجن، أو على الأقل يحطمان نوافذ السيارة، ليس سوى مخالفة وضعها أحدهما في مقدمة السيارة، وانصرفا، للناس هنا طريقة غريبة عجيبة، فهم لا يتدخلون في شؤون الآخرين مثلما نعمل نحن؛ وإن كانت أشياء خادشة للحياء.

❊ ❊ ❊

وصل "كنت" فانتبهت من غيبتي في أفكاري، رحبت به وشعرت أن أفقي حالمٌ ممتدٌّ بلون البحر الشفافِ على امتدادِ الوجع، يحاول أن يجتاز ممرات التعب المفزع، غير أنه فاجأني بالقول: "لا بد أن تتزوج يا شيخ، يبدو أن موضوع اللجوء سيتأخر، ولعلهم لن يقبلوه، ويجب عليك أن تكون حذراً فلعل الذي وشى بك في اليمن ما زال يذر رماد وشايته في طريقك هنا".

- ما الأمر يا "كنت"، أقلقتني؟

- هذا ما قلته لك، يجب أن تبحث عن امرأة أميركية، وتتزوجها؛ كي نستطيع أن نستخرج لك الإقامة، ما لم سيتم إعادتك إلى السجن؛ لتقضي بقية حياتك هناك، لن يرحلوك!

❊ ❊ ❊

انصرف "كنت" دون أن يدعني أكمل حديثي معه، لطالما أحببت الأحداث التي تصدر ضجيجاً بداخلي، يسعدني أن أرسم الوقائع في خيالي، وأعيش مع تفاصيلها حيناً من الدهر على عكس الواقع الذي تؤرقني تفاصيله الصادمة.

أخذت مكاناً بعيداً، وجلست أفكر فيما قاله "كنت"، أنا الذي لم أعد أهاب السجون ولا الترحيل إطلاقاً، غير أن الموضوع الآن لم يعد يخصني شخصياً، بل هناك ما هو أهم من ذلك؛ أبي، وأمي، وزوجتي، وأبنائي، بالإضافة إلى ثلاثة من إخواني العائدين من السعودية وأختين مع زوجيهما وأبنائهم ينتظرون ما سأرسله لهم آخر كل شهر، فإن حدث لي مكروهٌ -لا سمح الله - سيموتون جوعاً، لست وحدي هنا من يعول كامل أسرته، أغلب المغتربين اليمنيين في "أميركا" على هذا الحال، لقد تعرفت خلال العام المنصرم على الكثير من الأشخاص، تجاوزت غربتهم العشرين عاماً، لا يملكون شيئاً يذكر سواء في "أميركا" أو اليمن نتيجة

الإعالات الواسعة التي تقع على عواتقهم، الأكثر حذقاً منهم تمكنوا من بناء منازل لأولادهم فقط، هذا هو السبب الحقيقي الذي يجعل الأسرة بأكملها تفرح عندما يستلم أحد أفرادها فيزة الإقامة في "أميركا".

ما العمل يا ألله؟

حاولت الإمساك بخيط الطيف الجميل، لكنه انزلق من يدي، وتلاشى بين أمواج الخضم الهائل، كنت أود التحرر من واقعي البائس الكئيب، كما حاول سيزيف[1] أن يتحرر من صخرته العنيدة، غير أن الزمن القاسي والهواجس السوداء لا تريد لي الفكاك.. دلفت إلى ذهني حينها معاناة المغترب الذي يدفعه ضيم الحياة إلى أن يحمل حقائب سفره المملوءة بأيامه وذكرياته، وييمم شطر المجهول، لا يعي أين يستقر به المقام؟! ولا كيف سيتعامل مع المصاعب والأعباء الحتمية التي ستواجهه؟! يتجول في الشوارع والأزقة، ويحدق في الوجوه والتفاصيل التي لم يألفها، يبحث عن ذاته التي لا يكاد يجدها حتى يفقدها.. ينتقل من سكن إلى آخر ومن مدينة أحبها إلى أخرى يخشاها.. يقضي حياته كمن يعيش فوق الماء، لا أرض يابسة يضع عليها قدميه، ولا وقت مستقر يرتب مشاعره المبعثرة، كل شيء في غربته موجع، صوت الطائرة يحرك حنيناً في أعماقه، ورائحة

(1) رمز العذاب الأبدي في الميثولوجيا الإغريقية.

عطر قد تجعله يذرف الدموع رغماً عنه، صوت أواني الطهي يصيبه بالاكتئاب؛ كون ذلك الصوت يذكره بطعام أمه التي تركها ورحل، أما المطر فيذكره بأبيه الذي كان المظلة التي يحتمي بها.

يظل معتقداً أن وجوده في هذه البلاد البعيدة مؤقتاً على أمل العودة إلى مسقط الرأس ومرابع الصبا، لكنه سرعان ما يكتشف أن بعض الآمال زائفة حين يرى الكثيرين وقد قضوا نحبهم بصمت، بعيداً عن أهاليهم، وآخرين غزا الشيب رؤوسهم، وحرموا أنفسهم ملذات الحياة، وهم يؤجلون العودة من وقت إلى آخر؛ كي يؤمِّنوا لقمة العيش لأسرهم المعدمة، ومع هذا يظل صامداً بقوة في وجه المتاعب والتحديات التي تواجهه ومجتهداً كي يصل إلى مبتغاه بجد لا يلين وجهد لا يستكين.. يتحمل أعباء الغربة بأملٍ يتضاءل ثم لا يلبث أن يعود.. يعيش كالمذبوح، وعيناه على وطنه.. يتحامل على أحزانه؛ ليرسم البسمة على شفاه أسرته الكبيرة.. يعمل طوال الليل والنهار لا يكاد يسترق من وقته سوى ساعات قليلة للنوم، يجني المال لا ليدخره، ولا ليمنح نفسه مشتهاها، وإنما ليصرف على أسرته الممتدة على امتداد الوجع.. ليس أسرته وحسب، بل لا يتأخر عن مساعدة أبناء عمومته وجيرانه وأبناء قريته والكثير ممن يعرفهم، بالإضافة إلى مشاركته في الأعمال الخيرية التي

تحتاجها منطقته.. لكنه كما يقول المثل الشعبي: "مأكول مذموم" لم تقدم له السلطات المتعاقبة شيئاً مقابل ما يقدمه للوطن باعتباره أحد الروافد الرئيسة للدخل القومي والركن الأساس للاقتصاد، بل إنها تتعاطى سلبياً مع قضاياه، وتقدمه لقمة سائغة لـ: "المتهبشين"، وقطاع الطرق، فبمجرد أن تطأ قدمه أرض المطار يشعر أنه عاد من غربة الخارج إلى غربة الداخل، وهي أشد وأنكى؛ إذ تواجهه سلسة طويلة من المنغصات، فلا نظام يحميه ويحمي ممتلكاته، ولا قوانين تسهل له الاستثمار، وتوفر له فرص العيش والتمتع بمستقبله الهلامي في بلده.. كل شيء ضده حتى نسمة الوطن العليلة تتحول إلى بارود يقض مضجعه، ويحيل حياته إلى جحيم ما لم يصادر روحه..!

ما زلت غارقاً في التفكير وكآبة سوداء تتمطى في قلبي، بدا لي كل شيء دون معنى، المصاعب تحاصرني من كل جانب، ثمة رجلٌ عجوزٌ يخرج القداحة، ويشعل سيجارة متلذذاً برائحة التبغ بينما بقيت أحترق في مكاني، نظراته باردة لكنها تخترقني، شعرت أن هناك من يراقبني فغادرت مسرعاً نحو مضجعي، لم يعد سكني في المكان الذي وصلت إليه بعد خروجي من السجن، بل لدي غرفة في شقة كبيرة استأجرها "محسن" لعماله على بعد أربعة شوارع من عمارته، فيها: أربع غرف،

وحمام، وصالة صغيرة، كل ثلاثة منهم يقيمون في غرفة، أنا الوحيد الذي منحني "محسن" غرفة خاصة، العمارة التي يمتلكها مكونةٌ من أربعة طوابق: الطابق الأول فيه المحل التجاري، وخلفه شقة صغيرة، وفي كل دور شقتان، لكنه رفض أن يسكن العمال في ذات العمارة التي تقطنها عائلته، كما أن هناك سبباً آخر فالإيجار الذي يدفعه مقابل إيجار شقة العمال يساوي نصف ما يتقاضاه في عمارته بالرغم من أن مساحة الشقة أكبر بكثير من مساحة شققه.

لم أنم تلك الليلة، بت أفكر فيما قاله لي "كنت" ومآلات الخطوة التي سأقدم عليها، يفزعني الشعور الجياش بالإحباط، يسكن في أعماقي ليلٌ طويل، لقد خاب ظني في النهار وضاقت بالحياة حياتي، لكن رغم ذلك يجب أن أكون متماسكاً، صلباً، عنيداً.. لا ينهمر دمعي ولا تنحني هامتي.

نهضت للوضوء ثم صليت كثيرا حتى تعبت، ترنحت وارتخى عودي، وصلت متهدلاً إلى الفراش، أحلامي ساعتها شارفت على الاستحالة، غير أني أصررت على أن أتعلق بما تبقى لدي من بصيص أملٍ في انتظار أن يأتي الفرج..!

في اليوم التالي ذهبت إلى العمل، كانت قد حضرتني مقولة "فرانز

كافاكا" التي تقول: "يجب أن يكون هناك شخص واحد على الأقل تذهب إليه حينما لا تعلم إلى أين تذهب"، فكان "محسن" هو الشخص الوحيد الذي أستطيع الذهاب إليه، حدثته بما دار بيني وبين المحامي، كنت قد تشجعت على العمل "بالرجسته" وصار لدي قدرة على التعامل مع "الزبائن"، وتلبية حاجاتهم دون مساعدة أحد، ما زلت غير قادر على تحدث الإنجليزية لكنني بالفعل قادر على إدارة "الرجسته" ومدرك لأسماء وأسعار كل الأصناف التي نبيعها.

قال لي "محسن": "على بركة الله، ولا لك إلا ندور لك على واحدةٍ تنسيك اليمن، لكن ما خابرتنيش أنت تشتي زواجه من صدق وإلا بزنس"؟

حيرني عرض "محسن" فشعرت بقلبي يغوص فجأة في ماء يغلي، وموجات باردة وساخنة تتالت عليّ حتى صار جامداً، وكأن أحد أبراج "منهاتن" الشاهقة وقعت عليه، رأسي لم يتوقف عن الدوار وتدوير الهواجس، أنا متعب بالفعل؛ كون الحيرة تفرض سيطرتها على مداركي. لم أرد على "محسن" ولكني بقيت أفكر فيما قاله لي، كنت لا أمعن النظر في زبائني خصوصاً الإناث إلا بالقدر الذي تقتضيه الضرورة، غير أني - لا إرادياً - بدأت أجول بناظري بين السيقان العارية باحثاً عن شريكة

لحياتي، وأنا الذي حين أردت الزواج في بداية حياتي اختارت لي أمي "سلمى" ابنة خالي لتفرض عليّ نصفاً آخر ما استطعت الإقامة معه رغم محاولاتي البائسة، صحيح أنني لا أكرهها، وأتعامل معها بكل احترام ولطف، غير أني في ذات الوقت لا أحبها، أتعامل معها كزوجة وحسب، لكن، ترى هل سأختار لنفسي هذه المرة زوجة تليق بي أو سأخضع مضطراً لاختيار غيري؟

أنهيت حساباتي، وسلمت "الرجسته" لـ"يوسف" ابن أخت "محسن" الذي بت أتناوب معه على إدارتها، حين أردت الخروج تناهى إلى سمعي صوت أعرفه، نظرت باتجاه الصوت فإذا بملوزة العينين تملأ كأسي الفارغ شجناً من الزاوية القريبة بأهدابٍ وطفاء ترف بالحنين، تسمرت مكاني وقد شعرت بنظراتها كأنها نهرٌ متدفقٌ في أرضي العطشى، وجيب قلبي يتسارع، ورأسي يتأرجح بين الحيرة والفرح، لا زالت تتأملني بدفء عينيها؛ لتغطي برد روحي وتعبها، أود الذهاب إليها لكن ماذا بوسعي أن أقول لها وأنا ما زلت أعجماً حد قول "محسن"! غير أن مقولة مولانا "جلال الدين الرومي" التي تبادرت إلى ذهني حينها: "لا يهم عدد اللغات التي تلم بها.. ما يجعلك قيماً هو إتقانك لغة القلوب" جعلتني أوكل إلى قلبي مهمة التخاطب معها، أنا الذي لم تأسرني عينان

طيلة حياتي، وها هي روحي تساق مكبلة الآن.

ترى هل أنا آثم في إمعان النظر في هذا الجمال الصارخ؟ أم أن النظر بالعيون جائز من الله حد قول الشاعر "محمد بن شرف الدين الكوكباني"؟

كنت كلما استرقت النظر إليها باحثاً عن مرسى لشراع روحي التائهة هربتُ إلى الداخل أتوضأ للصلاة، غير أني حينما أهم بصلاة ركعتين توبة لله أعود لنفسي فأجدني لم أرتكب ذنباً فأصليها نافلة مطلقة.

أنا لا أتقصد ذلك الفعل، بل إن قوة خارجية خارقة هي من تدفعني إلى ذلك، أشعر وكأن داخلي نهر جائع، كيف يجوع النهر ويعطش؟، هذا ما أود اكتشافه وسط الجوع والعطش العاطفي الذي يعتريني.

أخذتني وغادرت المكان بينما لم تغادرني تلك الرموش المتشبثة بروحي، وهي تصرخ مستغيثة بألا تتركني أصارع أقداري بمفردي.

❊ ❊ ❊

كان "أحمد" و"عبداللطيف" قد سبقاني إلى الشقة بينما تأخر "سفيان" لشراء متطلبات العشاء، كنا قد اتفقنا أن نتعشى تلك الليلة "عصيداً ومرقاً"؛ لنؤدي مشهداً يمنياً خالصاً، رغم أني قد أكلت "عصيداً" في اليمن يكفيني إلى قيام الساعة، "عبداللطيف" يجيد إعداد الوجبات

الشعبية: العصيد، المرق، السحاوق، الحلبة، السلتة، المشدخة، الزوم؛ لذلك كان يشترط علينا أن نحضر له الطلبات، وننظفها، ونقطّعها؛ ليقوم بطباختها ثم نقوم بتنظيف الصحون بعد الأكل، لم يكن لدينا مطبخ في الشقة، كنا نطبخ في جزء من الصالة، ونأكل في الجزء الآخر.

في تلك الليلة كنت شارد الذهن مشتت الحواس، لم أكن على ما يرام، هكذا حدثني "سفيان" أثناء تناول العشاء؛ فبررت له ذلك بأن لدي مشاكل عائلية في اليمن، "سفيان" حصل على الجنسية الأميركية منذ ثلاثة عشر عاماً لكنه ما يزال عاملاً، بعض الذين جاؤوا من بعده امتلكوا متاجر وعمارات ومحطات بترول، بينما ظل على حاله منذ ذلك الوقت، يغترب سنتين؛ ليجمع مبلغاً من المال، ثم يسافر إلى اليمن يبددها في القات والرحلات والخصومات التي ما أن ينتهي من واحدة حتى يدخل أخرى؛ ليعود إلى "أميركا" غارقاً بالديون، لقد تمكنت خلال فترة قربي منه من ثنيه عن ذلك، هذه المرة تجاوزت غربته السنة الثالثة، ولديه مبلغ من المال، لا بأس به، تفلت من تلك الفخاخ التي كان أصحاب قريته ينصبونها له في المحاكم لابتزازه، لقد قرر أن يشتري عمارة في "صنعاء"، فنصحته أن يشارك في نصف دكان أو حتى ثلث في "نيويورك" وبعدها سيشتري ما يشاء في اليمن. عرفته قاطعاً للصلاة،

يتناول الحشيش ويرتاد النوادي الليلية بين الحين والآخر، لا يستطيع التحكم بهوس لذته نحو النساء، يعيش حالة يأسٍ وإحباطٍ عالية، لكنه الآن مختلف تماماً عن ذي قبل، لم أقم بنصحه طيلة تلك الفترة الموحشة من عمره، كنت أخشى أن يتحسس فتكون ردة فعله سلبية؛ لذلك كنت أتعامل معه برفق قبل أن أتحين لحظة صفائه الذهني فأحدثه عن أشخاص دفع أهاليهم دماء قلوبهم لإيصالهم إلى هذا البلد، غير أن انحرافهم جعل أهاليهم لقمة سائغة للأسى والأنين، أدحرج له من خلال تلك القصص نصائح في الحياة والتعامل مع الجمر الذي نقبضه بأيدينا في هذا البلد، في الحقيقة كنت أنصح نفسي مجتهداً وانعكاس ذلك النصح أعاد "سفيان" إليه. أدرك ليلة ذاك أن ثمة مشكلة عويصة تعبث بأعماقي، لم يقتنع بما قلته له، لحقني إلى غرفتي بعد أن فرغنا من تناول العشاء وألح عليَّ أن أكشف له عما بداخلي، عارضاً مساعدتي حتى لو يكلف الأمر دفع كل ما يمتلكه من مال، أخبرته أن الموضوع لا علاقة له بالمال، وإنما حول ترتيب وضعي بخصوص الإقامة، وأن المحامي قال: لن يتم منحي الإقامة إلا إذا تزوجت، ضحك بصورة جنونية قائلاً: "فجعتنا يا شيخ، قلنا مدري مو بقي عليك، الزواجة سهل، تقدر تتزوج حتى الليلة". هذا كل ما قاله قبل أن يغادرني، لقد منحني الدواء دون أن

يدلني على كيفية استخدامه، معتمداً على ما سمعه عني من ذكاء، غير مدرك أن هذا البلد قد حولني إلى طفل يحبو على حافة واقعه الجديد.

* * *

كنت قد حدثت "محسن" بما قاله لي "المحامي" لكنه تجاهل حديثي هذه المرة، وتركني أحتسي آلاماً لا أول لها ولا آخر.

وضعت رأسي على وسادتي محاولاً استرداد أنفاسي المتهالكة، فداهمني الأسى مع سبق الإصرار والترصد، استرق مني آخر ومضة أمل في جعبتي؛ ليرديني حزيناً.. شعرت أن تقاسيم وجهي تغيرت، فتقدمت صوب المرآة كيما أتأكد من تلك الانكسارة التي تتمدد في أعماقي، بيد أني حين وقفت في مواجهتها اكتشفت أن تلك التي ودعتها بصمتٍ وأنا أغادر العمل قد تركت شيئاً منها هنا وغابت في المرآة.. تلفتُّ في كل الزوايا أبحث عن إقامة في أعماقها أو حتى نظرة مفخخةٍ بالوداع، غير أني عدت مضرجاً بآلام لا أعي كنهها، آلام تعض نواجذ تلك الومضات التي أخشى أن تورثني الحزن.

غادرت المرآة مثقلاً بأوجاعي، ألقيت نفسي بين دفتي كتاب يسرد تفاصيل التمرد الذي حدث في السماء، فأفزعتني أحداث تلك الخطيئة التي لا زلنا نتجرع تبعاتها حتى اليوم، أرخيت حبل سفينة أفكاري؛

لأيمم روحي شطر رمشيها علِّي أستعيد كينونتي المتدحرجة نحو هاوية السقوط.

صباح اليوم الثاني هاتفت "محسن" لأخبره بأنني سأتأخر لبعض الوقت؛ كوني سأذهب إلى مدرسة (EC english) لألتحق بأول دورة لتعليم اللغة الإنجليزية، ما عدت أحتمل الحياة في هذا البلد دون إجادة الإنجليزية. فرح "محسن" وطمأنني بأنه سيغطي مكاني في العمل حتى أعود، لكنه عاد ليطلب مني أن ألتحق بالدورات المسائية حتى أستطيع التوفيق بين أوقات العمل والدراسة، كنت قد اصطحبت "عبداللطيف" ليتحدث معهم ويرتب لي كل شيء، "عبداللطيف" يجيد اللغة الإنجليزية بطلاقة، كم تمنيت أن أكونه في هذه الجزئية، يجيدها كونه ولد في "أميركا" وتربى فيها، لم يعرف اليمن سوى مرة واحدة أثناء حرب صيف 94 وقد عاد منها محملاً بانطباعات سيئة، هكذا حدثني أثناء ذهابنا إلى المدرسة والإياب منها: "خمسة عشر يوماً قضيناها في "صنعاء" في الحي المجاور للمستشفى الجمهوري، عشنا خلال هذه الأيام القصيرة أصعب أيام حياتنا، سقط صاروخ "اسكود" الذي أطلق من "عدن" في بداية الحرب على البيت المجاور لمنزلنا، وقضى كل من في البيت أمام أعيننا، بعضهم تم إخراجهم من تحت الأنقاض عبارة عن أشلاء مزقها توحش الساسة

اللاهثين خلف كرسي الحكم، أصيبت حينها الأسرة بحالات ذعر ونوبات هلع مريعة، لم نكن ندرك أن قرارنا قضاء الإجازة في اليمن سيتوافق مع إرادة فرقاء السياسة بالتخلص من بعضهم ليسيِّروا طائراتهم وصواريخهم لقتلنا، كنت في تلك الأيام في الرابعة عشرة من عمري ترعبني أصوات الأسلحة ومناظر الحرب حين أراها في الأفلام، فما بالك بعد أن عايشتها على الواقع، قبل أن تتكفل السفارة الأمريكية بنقلنا بطائرة عسكرية إلى خارج اليمن، كنا قد ذهبنا إلى مطار "صنعاء" للسفر، أخبرونا أن ثمة طائرة تنتظر الرعايا الأمريكيين لنقلهم إلى "الأردن"، قبل دخولنا المطار كانت الطائرات القادمة من عدن تقذف حمماً لتدمير مدرج المطار، أصوات الانفجارات مرعبة، وشبح الموت يقف على مسافة قريبة منا، لن أنسى ذلك الرعب الذي ما زال ماثلاً أمام عيني كلما ذكرت اليمن".

❋ ❋ ❋

ودعت "عبداللطيف" على أمل أن نكمل حديثنا في وقت آخر، وذهبت نحو عملي، وصلت "الدكان" متأخراً ساعتين عن موعد حضوري المعتاد، عندما رآني "محسن" ضحك ضحكة ساخرة وهو يسحب نقوداً من "الرجستة" لإعادة الباقي لأحد الزبائن قائلاً: "قدك

ناوي تتزوج يا شيخ، من صدق، لكن قل لي تشتي واحدة من حق اليهود والا من حقنا".

لذت بالصمت ودخلت الـ"كاشير" لمساعدته في الخلاص من الطابور الطويل الممتد أمامه، حركة العمل في الصيف تزداد بصورة غير طبيعية، لا يستطيع "كاشير" واحد تلبية طلبات الزبائن، لا بد من عامل آخر يساعده في توفير ما يحتاجه الزبائن من الرفوف التي خلف "الرجستة"، غيابي خلال الساعتين الماضيتين سبب كل هذا الزحام، لن أفعل ذلك مجدداً، قررت أن أسترق ساعتين من آخر دوامي وأذهب فيها إلى المدرسة، لن يكون ذلك مرهقاً على العمال؛ كون العمل آخر النهار أقل بكثير مما هو عليه الآن، يزداد عند الساعة الثامنة مساءً، ساعة أن يأتي أصحاب الدوام الثاني، وإلا لما كان "محسن" طلب مني اختيار دورات الفترة المسائية.

انتهى الطابور الطويل فبدأت أستعيد أنفاسي تدريجياً، أردت التحدث إلى "محسن" حول موضوع الزواج، وفي ذات الوقت أرد على سؤاله الذي يضج في رأسي، إلا أن ذلك البرق الذي تألق في العينين الناعستين اللتين أطلتا من الباب، وابتسم، وهو يومض لي بتحية صباحية أضاءت جنبات روحي المعتمة، زلزل آخر حصوني، وأفقدني

القدرة على التماسك والسيطرة على مشاعري المفضوحة؛ فوقفت كأني أستقبلها، خطر على بالي أن أحتضنها بكل ما أوتيت من شوقٍ عليّ أستعيد كياني الذي بعثرته الأيام وسحقته تحت حوافر قسوتها، غير أني لمحت عيوناً تترصدني من الزوايا القريبة، فتنحنحت مرتبكاً، وتظاهرت بترتيب حبات الشوكولاتة التي أمامي، مرت بمحاذاتي واضعة كفها كأنها تُربتُ عليها، وَمَضَتْ، كان هواء التكييف قد داعب برفق شعرها الأسود التي أطلقت سراحه عنوة؛ لينساب على كتفيها كليلٍ لامع في تمام البدر، وكانت روحي تزحف تحت عطرها، بقيت أسترق النظر إليها بصمتٍ حتى توارت خلف ثلاجة العصائر.

ترى هل رآني "محسن" وأنا في ذلك الوضع المرتبك، أم أن التقاء ناظرينا كان مجرد مصادفة؟

ماذا عن العمال، ألم يشعر بي أحد منهم، كيف سيكون موقفي أمامهم، وهم يعدونني قدوة بالنسبة لهم؟

وفي الجانب الآخر، ترى لماذا حطت يدها على صدري، أعني، صدر حبات الشوكولاتة؟

أتكون فعلاً أرادت إيصال رسالة مبطنة لي، أنا الذي ما عدت أدرك بعد رؤيتها: هل أنا أنا أو إنسان آخر؟

لماذا غطت سائر جسدها، وتركت شعرها حراً يعاندني، ويوبخني بسوط عتابٍ بعد أن أصبحت في نظرها طفلاً أبلهَ عاجزاً عن اكتشاف نبض أنثى تعشقه؟

لكن، هل تعشقني فعلاً؟! أنا المهتوك القلب، الغارق في وحل صدفة عمياء، عجزت عن مجاراتها أو الفكاك منها؟!.. قلتُ لي وأنا أبحث عن وردة حمراء في "بوكيه" ورد ملون تركه أحد الزبائن بالقرب مني: يجب أن أكون شجاعاً هذه المرة وألا أدعها تغادر دون أن أهديها شيئاً يعبر عما بداخلي نحوها، لكن ما الذي بداخلي، هل فعلاً صرت أحبها دون أن أعرف عنها شيئاً: دينها، جنسيتها، وظيفتها؟

كل هذا لا يهم، الحب لا يعترف بهذه الجدران والخرسانات العازلة!

هل الحب ترنيمة سهلة العزف أو سردية بديعة نهيم في مفرداتها، وبها نفر من مآسي الواقع إلى رحاب الجمال.. من الأرض إلى الأفق الواسع الذي لا يعلوه سوى فضاء شاسع مملوء بالنجوم والكواكب التي تسبح دون مستقر؟!

* * *

خبأتُ الوردة الحمراء تحت معطفي كمن يخبئ جوهرة عن لصوص

يترصدون خطواته، وبدأت أحتسي القهوة بشره، لا لأني أبحث عن مادة الكافين كما يفعل سائق شاحنة ينتظره موعدٌ عاطفي، بل لأخفي ارتباكي في هذا الصباح الذي تسلَّلَت فيه الشمس إلى قلبي بعد أن كان الجليد قد دق مساميره فيه.. في انتظار تلك التي لا يواريها الكون، وهي متدارية خلف ثلاجة الآيسكريم.

تقدمت نحوي ببطء وفي يدها علبة "نوتيلا" صغيرة ومناديل، لا أعرف كيف أنظر إليها، اجتاحني دبيب أصم، شعرت بخفقات قلبي تتسارع وتضطرب، يبدو أنها جاءت هذه المرة من أجلي أنا، لا من أجل ذلك الذي بيدها، حين وضعتها أمامي أخذتُ الوردة وقدمتها لها، نظرتْ إليَّ سائلة ما ترجمته: أهذه لي؟ ثم ابتسمت بدلال، وهي تشتم رائحتها، وتضمها إلى صدرها، كانت عيناها لصيقة بي، وهي تقول كلاماً لم أفهم منه شيئاً سوى الجملة الأولى، كنت أحرك رأسي فقط؛ لأتظاهر بأنني أدرك ما تقوله، بينما بقيت في الحقيقة أتفحص وجهها الرقيق: خجلٌ ظاهرٌ على خديها، رمشان منسدلان كأهداب نخيل، أنفٌ فيه شممٌ، وعنقٌ كانه إبريق فضة، وصدرٌ ناهدٌ لا يخلو من حشمة وخجل، تقع بين الطول والقصر، في جيدها غيد، وفي حضورها مهابة ليست لغيرها.

شعرتْ بالزبائن خلفها فأخذت الكيس الذي وضعتُ لها بداخله

الـ"نوتيلا" والمناديل، وودعتني بابتسامة نقية، وهي تسير إلى الخارج، كانت ما تزال تنظر إلي بينما كان "محسن" يسير نحوي فتعثَّرتْ به، وسقط الكيس من يدها، أخذه "محسن" من الأرض، وأعاده إليها، وهي تعتذر، ابتلعها الباب، ولم أعد أراها.

عدتُ إليَّ أتلمسني، أتلمس قلبي الذي لم يشعر بالعشق سوى على ضفاف الورق، بدأ الموت يغادر قلبي الذي كان أشبه بالمقبرة، أشعر كأن نبتة خضراء تنمو بداخلي وتكاد تورقُ وتزهر، أنا طموح بالفعل لكني شحيح الحظ، وتعيس الحال كغالبية المغتربين اليمنيين في هذا البلد، تركت "محسناً" لبعض الوقت ثم سألته وأنا أتظاهر بترتيب "الأورة" التي وصل بها "جورج" اللبناني للتو:

- هل تلك التي اصطدمتَ بها عربية؟

- "لا لا مش عربية، هذه أمريكية يهودية"!

- أتعرفها..؟

- "لا، لكن ما يلبسين هكذا إلا اليهوديات، أيش قد معانا، فكر على قدرُك، قد حصلتُ لك واحدة الراكت حقها تمام، وباتنفعُك بدون تعب".

- من أين هي؟

- "من بورتوريكو، مره عاقلة لا عاد تعول ولا شي، عمرها فوق الخمسين سنه، نستأجر لكم شقة، ودقدقت لك معها لما تصلح أمورُك".

- يبدو أنك ناوي تنتقم مني مع واحدة بسن أمي هههههه، أود زوجة ترمم ما أفسده الزمن لا سجناً أقضي فيه عقوبة أخرى دون ذنب!

* * *

ضحك "محسن" ضحكة مجلجلة لم يسكتها سوى اقتحام الشرطة للمكان، أعداد كبيرة تنتظر في الخارج وأخرى في الداخل، أشهروا أسلحتهم في وجوهنا، وطلبوا منا الاستدارة نحو الجدار، كان "محسن" يطلب مني عدم التحرك والحذر من عدم إدخال يدي في جيبي أو أخذ أي شيء؛ لأنهم سيطلقون النار فوراً، أغلقوا باب "الدكان"، وبدأوا بتفتيش كل زاوية فيه، لم يدعوا شبراً إلا فتشوه، كان وجهي ملتصقاً بالجدار، ويداي إلى الأعلى لكني كنت أسترق النظر حين ينشغلون بالحديث فيما بينهم لأرى ما يقومون به، "محسن" لا يبيع سجائر مهربة، ولا يقترب من الممنوعات إطلاقاً، ولا يتهرب من الضرائب، دائماً ما يشيدون بمثاليته والتزامه بقوانين هذا البلد، لكن ترى لماذا يتم مداهمة "الدكان" والشقة التي نسكن فيها بين الحين والآخر؟

أأنا المستهدف من وراء هذا كله؟

هل لتحذيرات المحامي "كنت" الدائمة لي علاقة فيما يحدث؟

لماذا كل هذا العناء..؟

الوشاية تغرس مخالبها في الرماد، والفراشات ترقص على جثث الجمر، أنا في السليم، وكما قال المحامي "كنت": ما دمت في السليم لن يصيبك شيء في بلد القانون.

في تلك اللحظة البائسة التي اختلطت فيها أفراحي بفجائعي حاولت أن أستدعي من ذاكرتي شيئاً يريحني ويخرجني من حالة الشتات التي فتكت بي أو تكاد، غير أنها أبت إلّا أن تحشدني والأسى، غادرت "دكان" "محسن" في طريقي إلى المعهد، استقبلتني عند الباب امرأة بدينة بوجه كالحٍ منهزم غزته تجاعيد الزمن، على خديها وجع السنين، وفي عينيها ينام البؤس والقنوط، حين رأتني أرخت حبل لؤمها، وتركت كلبها يهاجمني، تشبثت بنصف معطفي الذي أنهكته الأيام بينما كلبها ممسكٌ نصفه الآخر، كلما شعرت به يشد المعطف نحوه تركت قدميَّ تسيران معه حتى لا يتمزق، وينال من ساقي التي تصارع من أجل الفكاك من أنياب الشر ومخالب تلك العجوز الشمطاء التي كانت إلى الأمس ممسكةً بعقلها، وهي تقتني الصحف، وتتظاهر بثقافة لم تكنها.

كثيرة هي التناقضات في هذا البلد المليء بكل مقومات الحضارة المختصرة، والموبقات، والفن، والتجارة، والانصهار العالمي، فـ "نيويورك" التي تشعر حين تسير في شوارعها وتتأمل -من زوايا مختلفة- مبانيها التي تطال السحاب كأنك في كوكبٍ آخر من السحر و"البزنس"، هي نفسها المدينة المظلمة المرعبة التي تثير في النفس الكآبة، وهي تغص بشتى نُذر الشر ودلائل الخطر.. شوارع تغصُّ بالفقراء الذين يدورون حول براميل النفايات للبحث عن لقمة تركها الأغنياء، وفي المقابل شوارع أخرى مليئة بالأبراج الشاهقة والمحلات التجارية الراقية المخصصة للماركات العالمية من الأزياء والعطور والتحف.. في "سنترال بارك" عربات تجرها الأحصنة وفي "البرونس" ينسحق الكثيرون تحت حوافر الفقر والبرد والتشرد.. كل شيء هنا مختلف، العرب يلهثون خلف المادة؛ خوفاً من مجهول يترصدهم، حتى الذي كانت تدير بوصلة حياته عادات اجتماعية توارثها عن أسلافه لم يعد يأبه لذلك المؤشر، بل ترك الحبل على غارب واقعه الجديد ومضى.

كل يوم ينقضي في هذا البلد هو بمثابة درسٍ جديد يزيدني وعياً وإدراكاً كيف أتعامل مع المشكلات والمواقف العويصة التي تواجهني! لم أعد أبحث عن الحلول في بطون الكتب، الأحداث التي تمر بي تجعلني

أشكل الواقع على ضوئها، وأسير نحو أهدافي.

***

تعلمت اللغة الإنجليزية وأجدت التخاطب بكل احترافية، لكنني فقدت من تعلمت لأجلها، لم أعد أراها، بتُّ كمسافرٍ في صحراء بلا متاع، وقوافله ظمأى، والسراب يلمع أمام متاهات أشواقه، مرت الأيام والشهور، وأنا أحملق نحو الباب دون جدوى، "محسن" رفع راتبي وسلمني إدارة "الدكان" إلا أن ذلك لم يجدِ نفعاً، أشعر كأن حياتي دونها عدم، عيناها كانتا المنارة التي تضيء دربي المعتم، بوصلة روحي تتجه نحو قبلتها في صلاة عشقية خالصة كل مساء، لكن، هل سأبقى أسير ذلك الحلم الذي ما زال في رحم الغيب ويأبى أن يتخلق؟! حلماً أخشى أن أرسمه كرجل "بورخيس" الذي أوكل لنفسه مهمة رسم العالم؛ فعاش سنوات من عمره يؤثث الفضاء والممالك والجبال والوديان والبحار والأسماك والنجوم والخيول والناس؛ ليكتشف قبل موته بقليل أن ما ترسمه المتاهة الطويلة من خطوط هي صورة لوجهه.

اتخذتُ مكاناً لي قريباً من الزبائن، وتركت "يوسف" يدير "الرجستة"، طلبتُ من عامل "الديلي" قهوة ثقيلة، وبقيت مشدوهاً إلى الباب، أنتظر إطلالتها المفاجئة، ليطل "جورج" اللبناني ببشاشته

المعهودة، حين رآه "يوسف" يرتدي الصليب على عنقه باشره بفظاظة القول: "ألا لعنة الله على الكافرين".

تنحيت جانباً خجلاً مما فعله "يوسف"، بينما وضع "جورج" "الأورة" وذهب نحو دورة المياه، وحينما فرغ منها عاد إلى "يوسف" ليحدثه بطريقته اللطيفة: أجبني عن السبب الذي يجعلكم تعطون للمرأة نصف ما للرجل في الميراث، وعن السر الذي يجعلكم تعبدون بيتاً في مكة، وسأعتنق دينكم الآن دون تردد.!

صمت "يوسف" للحظة ثم ترك مكانه وخرج متجها نحوي، قال وقد امتقع وجهه، واشتد حنقه: "عليَّ الطلاق لو ما تجاوب عليه؛ إننا أكفر الآن".

أعرف "جورج" منذ بدأت العمل هنا، هو في الحقيقة مسيحي لكنه يستمع للقرآن، ويردد آياته بإعجاب، ويستشهد بها أثناء حديثه معنا، يضع الصليب على صدره لكنه موحد لا يؤمن بالتثليث ولا بمعتقدات وفلسفة الطوائف المسيحية المتعددة، دائماً ما يثير وتيرة الجدلية الاستفزازية مع العمال، لكنه في ذات الوقت يتأثر بلطف تعاملي معه ومع الآخرين، أرى ذلك من خلال نظرات الإعجاب التي يوجهها نحوي عقب أي موقف إنسانيٍّ أقوم به، كثيراً ما يسألني عن تعاليم الإسلام وعلاقته بالجماعات

المتطرفة، وحتمية انفتاحه على الآخر، الحتمية التي لا شك أنها تهدد المفاهيم الغربية، وتؤرق مجتمعاتها التي تعج بضجيج الإسلاموفوبيا، ليتحول بذكائه العاطفي إلى مستمعٍ يجيد العثور على مبتغاه.

حين هممت أن أجيب على أسئلته التي أثارت "يوسف" قال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة، ساخرة، عريضة: خلي بالك من نفسك يا شيخ غالبية زباينك صاروا يصلوا ويصوموا، وحتماً، ثمة من يترصد مسارك، وسيحاول اكتشاف القدرة العجيبة التي تمتلكها لاستقطاب الناس إلى دينك لإجهاضها بالطريقة التي يراها صحيحة.. ثم أشاح وجهه عني، ونظر إلى الباب متجهاً نحو الخارج.

***

كان بعضي ما يزال هناك حيث تلك التي عزفت على أوتار قلبي لحناً، حين أدمنت شدوه اختفت، بينما بعض بعضي المهمل هنا يشدُّ الصقيع العظيم رحاله إليه، تمنيتُ ساعتها أنني لست أنا، لقد قدح كلامه في أنحائي شرارات نورٍ ونار.

ساورني الشك فيما قاله "جورج"، فزادت مخاوفي من بقائي دون إقامة، لقد مرت السنون وأنا أجيش بشتى ضروب الأسى، أودِّع كتل الحزن التي تتقاذفها الشهور المتعاقبة على أمل أن يأتي عامٌ جديدٌ يرمم

جراح الغياب، ويجمع قلبينا تحت ظلال المرايا، ما زلت تائه الخطى، محبطاً، أحاول لملمة بقاياي، والتخلص من مخاوفي تجاه قدري المجهول، مدركاً أن ثمة محطات لا بد أن أمر بها، وبحاراً ليس لي إلاّ السباحة فيها، ومعارك لا مناص أمامي من خوض غمارها.. المهم ألا تهزمني جيوش اليأس، وإن حشدت جحافلها، يجب أن أتزوج، لن أنتظر..!

كان "يوسف" قد أهداني قطعة "هريسة" ملفوفة بورق من جريدة "الجمهورية"، قال: إن أمه فرشت بها قاع الكرتون الذي حمل هداياها إليه، بعد أن أكلت "الهريسة" أخذت أقلِّب تلك الورقة، فوجدت فيها صورة لفتاة ريفية وسط حقل ذرة، وهي تخيط حذاءَها البالي وتبتسم، وتحت الصورة رد من أحد الكتاب على مغترب أساء للمرأة اليمنية: "أستغرب كثيراً حين يحاولون الإساءة إلى المرأة اليمنية، خصوصاً تلك الريفية العابقة بالأصالة والتفرد.. يشتكون منها ومن غياب أناقتها وعاطفتها ورومانسيتها، وهم في الحقيقة المغيبون عن الواقع الريفي الجميل الذي يفوح أريجه في الأفق؛ ليدغدغ المشاعر، ويبعث الأرواح من مرقدها.. الأنثى الريفية هي الكائن الجميل الممتلئ حناناً ورومانسية وعاطفة فياضة، غير أنكم لا تدركون ذلك نتيجة لانصرافكم عنها إلى واقع حداثي، باتت العاطفة فيه معلبة كتلك السلع التي تباع في "السوبر

ماركات".. لن أطيل كثيراً ولكني أقول: المعادن الثمينة لا تجدونها على ظاهر الأرض، وإنما في باطنها، وتحتاج إلى جهدٍ للوصول إليها، وكذلك أحاسيس ومشاعر الزوجة الريفية تتدارى خلف خجلٍ لذيذٍ ورومانسية صادقة تولد الإثارة وتعكس الصورة الحقيقية للحب الواقعي الثائر في الأعماق، والذي تعبر عنه تلك الحمرة الخجولة التي تطل برونقها الجميل على خد أنثى الريف كلما عجزت عن التعبير عن مكنونات فؤادها.. يجب أن تفتشوا عن الحب في أعماقِ زوجاتكم لترووا ظمأكم العاطفي كي لا يستحيل تمرداً".

شعرت آنذاك كأن قلبي عصفور ناشته مخالب الخطر، أخذت "كرت اتصال" وهرعت نحو البيت، أوصدت باب غرفتي وبدأت مكالمة هاتفية مع "سلمى" التي حاولت منذ الوهلة الأولى لسماعها صوتي أن تنتصر لروحها التي ملأتها سنوات الغياب بمشاعر منكسرة، كانت تتحدث بكلمات يعتصرها الحزن وشهقات تنبئ عن انسلال روحها عن جسدها، وهي التي لا تجيد العتاب إلا بالبكاء، واجهتني بما تعلمته مني خلال الفترة التي قضيتها معها، طالبتني بالعودة إلى اليمن في أسرع وقت؛ كوني تجاوزت - عشرة أضعاف - المدة الزمنية التي كنت في خطب الجمعة أطالب المغتربين بالالتزام بها، هي خجولة بطبعها، لكنها

هذه المرة تمردت على طبعها، وبدت تبوح بخفايا اللهفة التي تعتريها نحوي وعذابات الحرمان، التزمتُ الصمت أحياناً وتركتها تُخرِجُ ما راكمته السنون بداخلها من وجع الانتظار، وفي أحايين كثيرة كنت أحاول تبرير غيابي عنها بعدم سماح السلطات الأميركية لي بالسفر، لم تكن تعلم أنني ما زلت مقيماً غير شرعي حتى اللحظة، وأنني غير قادر على الخروج إلا إذا كان لدي زوجة أخرى، وهو الأمر الذي أخشى انكشافه، طالبتني بإدخالها مع أولادها ما دمت لا أستطيع الخروج، وقالت بصوت منكسر: أو قل لنا إنك قد تزوجت ونسيتنا! تلعثمت وأنا أحاول صرفها إلى حديث آخر بعيد عن النساء والزواج، لم أكن أتصور أن أكون ضعيفاً أمامها، وهي تسرد معاناتها ولواعج أشواقها طوال سنوات الغياب القسري، رافضة أن تكون أموال الدنيا كلها بديلاً لوجودي بالقرب منها، كنت أشعر بحرارة اشتياقها تتدفق عبر ذبذبات الهاتف، وتلفحني بلهفة عاشقةٍ أعياها البُعاد، إلا أني بقيت صامتاً أبحث عن ممر سري ينقذني مني ومن أسئلتها الحائرة المعلقة في حلق تنهداتها، بودي لو أنها تنهي المكالمة، بمَ أجيبها لو سألتني عن مشاعري نحوها؟! ذات السؤال الذي كنت أتهرب منه كلما حاصرتني به بعنادها المعهود، ترى لماذا لا تتحرك مشاعري العاطفية نحوها رغم أنها تحبني بجنون؟!

ألأنني موقن أن الحب رابط روحي وهبةٌ سماوية لا يمكن لورقة أن تؤطره وتحوله إلى مؤسسة استثماريةٍ رأس مالها "خاتم"، أم أن تقاليدنا الريفية لا تمنح العاطفة المساحة الكافية للتماهي مع نصفها الآخر قبل الرباط الاجتماعي الوثيق؟

الحب مثل الإيمان نعتنقه موقنين بصيرورته التي لا ندرك كنهها، الحب فضاءٌ واسعٌ لا توقفه الجهات ولا يحده المعقول.

***

تشبثت "سلمى" بالبحث عن إجابة لسؤالها المتعلق بموعد عودتي إلى اليمن، غير أنها حين أدركت عدم قدرتي على العودة قريباً عاودت البكاء بحرقة، سمعت أمي التي صادف مرورها بالقرب من النافذة نشيج "سلمى"؛ فعادت إلى الداخل مسرعة، كانت تخشى أن مكروهاً أصابني.. ما أجملها من لحظة حين يأخذ صوت أمك بيدك؛ ليضمك إلى صدرها أنت اللائذ من متاعب الحياة وهمومها، كان صوت أمي دافئاً رغم الصقيع الذي بات يتمدد في داخلي نتيجة القلق وانسداد أفق مستقبلي، حدثتني عن حبها لي، وحنينها لرؤيتي، وافتخارها أمام نساء القرية أن لها ابناً مغترباً في "أميركا"، كنت أصغي إلى حديثها بكل حواسي متمنياً ألا تتوقف حتى تغسل كل ما علق بروحي من رواسب

الحياة وهمومها، لكنها سرعان ما بدأت تحدثني عن القرية وعن عمارات أولاد "ناجي البتول" في "صنعاء" والسيارة الفخمة التي جاء بها يوم العيد، قالت وقد أطلقت آهةً ملأت السماء والأرض: "سلَّم ناجي على نساء القرية كلهن، ووزع عوَّادات، خمسة ألف لكل واحدة منهن، واشترى لعيال خواته أربع فيز الواحدة بـ 12ألف سعودي"، صمتت لبعض الوقت فظننت أنها ستغلق الهاتف لكنها عاودت الحديث عن معاناتها مع أبي وحياة الشقاء والقهر التي تعيشها معه، وكيف تغيرت من سيئ إلى أسوأ، خصوصاً بعد عودة إخوتي من السعودية، فكلما تشاجر معهم عاد ليشتمها ويصفها بعجوز الغابرين، قالت: إنه عاد في الأسبوع الماضي من سوق الاثنين، يرتدف "لحافه" الذي وضع فيه بعض الخضار واللحم وفي يده دبة جاز صغيرة[1]، حين وصل أسفل القرية ناداها بأعلى صوته طالباً منها أن تنزل؛ لتحمل عنه، ولأنها لم تكن بصحة جيدة طلبت من إخواني أن ينزلوا إليه بدلاً عنها، إلا أنه حين رآهم أزبد وأرعد وأصر على نزولها هي دون سواها، فتحاملت على صحتها ونزلت إليه، حين وصلت وتعلقت عيناها بتلك النظرة الساخطة التي سكنت وجهه أخذت ما بيديه بصمت، حاولت أن تتجنب لسانه وتتقيها، غير أنه ظل

---

(1) مادة الجاز (الكيروسين) كانت تستخدم لتعبئة "الفوانيس" و"النورات" و"السراجات" التي تستخدم للإضاءة.

ينفث شرر غضبه طوال الطريق، ويشتمها، ويشتمني، ويشتم الزمن، ويصب لعناته على الأسرة كلها، لم يُبقِ ولم يذر، وهي تسير خلف العذاب الذي لا خيار لها حياله إلا الصبر، لم تنبس بكلمة، حتى إذا ما وصلت أمام البيت فقدت قدرتها على التحمل، وبدأت تدعو عليه فتعالت شعلة الغضب بعينيه، وانهال عليها بعكازه؛ لكنها تمكنت بمساعدة "سلمى" من الهرب إلى غرفتها، وأحكمت إغلاق الباب بالمزلاج؛ لتظل في غرفتها حتى عادت بوصلته العقلية إلى مسارها.. قالت: إنه دائما يحاول ضربها غير أن "سلمى" تمنعه عن فعل ذلك، لقد تحملت كل ذلك العناء صابرة محتسبة على أمل أن يتغير حاله إلا أنه يزداد تحرشاً بها وتحقيراً لشأنها.

حاولت وقد زاد إحساسي بالانكسار والانهزام تهدئتها وتطييب خاطرها، وعدتها أن أرسل لها نهاية الشهر خمس مائة دولار دون أن يعلم بها أبي، وأن أعمل جاهداً لأشتري لهم بيتاً في المدينة، حتى يتخلصوا من صعوبة الحياة في القرية والجري خلف اللاشيء، لكنها قاطعتني قائلة: "إذا تشتي قلبي يجلس مجبور منُك، مكنت لأخوتُك قيمة فيز يدخلوا السعودية، يهربوا من أبوك ويشقوا على عيالهم". انتهى الكرت.

* * *

الصبح آتٍ، ضوءه الأول يتسلل من خلف الستارة، هي ليست ستارة وإنما عبارة عن قطعة قماش مقلمة ربطتُ أطرافها بخيط رفيع ووضعتها على النافذة. يبدو أنني فقدت صلاة الفجر في وقتها!

صليت، ثم ذهبتُ إلى النافذة، لا هواء عليلٌ ثمة ولا نسمات نقية، عدتُ إلى فراشي، حاولتُ أن أستدعي من ذاكرتي مواقف مفرحة علها تريحني وتسلمني بهدوء إلى نعسةٍ تساعدني على الصمود خلف "الرجستة" خلال الاثنتي عشرة ساعة القادمة، لا شيء مفرحٌ في حياتي، بقيت شاخصاً أفكر بما قالته أمي، دخلت دائرة مغلقة مليئة بالإحباط، كبرت همومي ولم أعد قادراً على تصريف شؤون حياتي، أنا هنا بحاجة إلى مشروع زواجٍ يمنحني البقاء في هذا البلد، وأسرتي مترامية الأحزان في اليمن بحاجة إلى "مصاريف"؛ لتعيش كبقية الناس هناك، أبنائي مقبلون على زواج، وإخواني بحاجة إلى فيز للعودة إلى السعودية، وأبي يحتاج مصروفه لوحده، وزوجتي أيضاً وأمي وأخواتي.. سأترك هذا كله جانباً، لا وقت لدي للتخطيط، يجب أن يظل قلب أمي مجبوراً مني كما قالت، لن أردها خائبة كما لم أفعل من قبل، حتماً سيكون طلبها نافذاً خلال هذا الأسبوع، لكن لمن ألجأ كي يقرضني قيمة ثلاث فيز لإخوتي، الفيزة بـ 12 ألف سعودي، والدولار يساوي 3.66 سعودي،

ولذلك أنا بحاجة إلى عشرة آلاف دولار. ترى من سينقذني؛ لأكون باراً بأمي؟ هل أحكي لـ "محسن" ما حدث وأطلب المبلغ منه أو أدعه للأزمات الأكثر صعوبة، فكرت كثيراً وتذكرت معاريفي وأصدقائي، فاستقرَّ تفكيري على "محمود" بن عمي "صالح" في "ديترويت" بولاية "ميتشجان"، قلت لنفسي: لن يردني أبداً، خصوصاً حين أخبره بظروف إخوتي والعبء الذي يشكلونه عليّ، صحيح أنه لم يسأل عني خلال هذه الفترة الطويلة لكن ربما يعود ذلك إلى ظروف الحياة في هذا البلد والتباعد الاجتماعي الذي يفرض حضوره بتهكم في أوساط الجاليات العربية بشكل عام، أخرجت الهاتف وقبل الضغط على زر الاتصال راودتني فكرة أن أقوم بزيارته إلى منزله هناك، منها أطمئن عليه وعلى أبنائه الذين لا أعرفهم؛ كونهم من مواليد "أميركا" وفي ذات الوقت أطلب منه المبلغ الذي يحتاجونه في اليمن؛ لأكون بهذا قد ضربت عصفورين بحجر.. أستحسنت الفكرة، وجال بخاطري أن أطلب من "محسن" إجازة لمدة أسبوع أعيد فيها ترتيب أعماقي المنهكة، وأغسل ما علق بها من متاعب، كنت أعلم أن "محموداً" يمتلك محلات وبنايات كثيرة، وأنه في بحبوحة من العيش، لذلك قررت أن تكون زيارتي إلى "ديتوريت" عبارة عن فسحة، أنا الذي قضيت ثلاث سنوات وبضعة

أشهر بين العمل والسكن، لا أعرف سواهما، صحيح أنني اجتزأت في السنة الأخيرة بعض وقتي لتعلم اللغة الإنجليزية؛ لكنني في الحقيقة كغالبية المغتربين اليمنيين الذين يرزحون تحت طائلة الحجر الاختياري لهثاً وراء المال.

عمي "فيصل" -رحمة الله عليه- الذي لم ألتقِ به طيلة حياتي ولا أعرفه سوى عن طريق الصور؛ اغترب ثمانية وعشرين عاماً في هذا البلد، قضى جلها في دكانه الصغير في "كوني ايلاند" بـ"نيويورك"، حتى توفاه الله قبل خمس سنوات، قال لي "محسن" الذي اشتغل معه عند وصوله "أميركا" عام 1986: إن الزبائن كانوا يضحكون حين يقول لهم عمي (وس وس) بمعنى "what is this"، وكلمات كثيرة لم يعد يتذكرها، لا يتحدث لغتهم لكنه بالطبع يفهم ما يريدونه، ويدير دكانه بكل اقتدار، صحيح أنه لم يتعلم لكنه علَّم أبناءه، وصرف عليهم حتى تخرجوا من الجامعات، وصار لهم شأن عظيم في هذا البلد، ابنه الأكبر "زيد" محام وحقوقي بارز، يناضل ويقود المظاهرات للمطالبة بحقوق الأقليات وانتزاعها من بين مخالب العنصريين ودعاة التفرقة والاضطهاد، ويرأس منظمة حقوقية تدعو إلى إعادة صياغة السياسة الأمريكية المتعجرفة تجاه العرب، والوقوف إلى جانب المهاجرين وتقديم المساعدة المجانية؛

لتسهيل دخول أقاربهم، وقد فاز بعضوية المجلس المحلي في "ستاتن ايلاند" كأول يمني يفوز بهذا المنصب، بينما أخوه الأوسط "محمد" يعمل ضابطاً في شرطة "البني"، أما "خالد" وهو أصغر أبناء عمي "فيصل" فلديه شركة "إي تي أم" شهيرة تدر عليه أرباحاً طائلة جعلت منه أحد رجال الأعمال البارزين، لكنني في الحقيقة لم ألتقِ بأحد منهم، ولعلهم لن يعرفوني أو يتعرفوا عليّ حتى وإن التقينا، في هذه البلد لا يهتم أحد بالآخر، ولا يبحث الناس عن أقاربهم أو معاريفهم بقدر لهثهم خلف المال، المال وحده من يدير حياة الناس ويتحكم في مصائرهم، لا شيء في هذا البلد بإمكانه أن يكبح جماح هذا النهم المتوحش، حتى الحب ذاته لا يساوي شيئاً أمام رُزم الدولارات، تحضرني الآن مقولة "نيشان بانوار" التي تحاكي هذا الواقع: "يقولون إن الحب أهم من المال، إذن لماذا لا تجرب دفع فواتيرك بالحب والعناق؟".. ومع أن الحب ذو أهمية بالغة في حياتنا لكنه -حتماً- لا يستطيع أن يغنينا عن المال، وفي ذات الوقت يجب ألا ندع المال يستولي على حياتنا؛ ليصبح الهاجس الأوحد لكثير من الناس، وبالتالي فإن المسألة نسبية في هذا الخصوص ولا يمكن إطلاقها، ففي الوقت الذي لا يمكن للحب أن يدفع الفواتير، لا يمكن للمال أن يمنحنا الحب أو العافية والطمأنينة والسعادة الحقيقية، ألم يقل

"البرت اينشتاين": "أغلى شيء في حياتك هو ذلك الذي لا تستطيع شراءه بالمال"؟!.

***

حزمتُ حقيبة سفري الصغيرة وتوجهت نحو محطة "غراند سنتر" ميمماً شطر مدينة "ديتوريت"، اللوحات الإرشادية الموجودة على رصيف المحطة تمد المسافر بمعلومات كافية عن رحلته، لم أكن خائفاً، ولا تائهاً، اللغة منحتني القدرة على تحريك بوصلة وجهتي، كانت المرة الأولى التي أركب فيها قطاراً يشق عباب المدى، ويمنح الريح ريشته؛ لتعزف على وتر اللحظة أغنية الأمل الشريد، المشهد الحي الذي أراه من النافذة صرفني عن النظر إلى ساعتي وذلك العجوز الذي يغرس نظارته في رواية "بيت الأرواح" للكاتبة التشيلية "ايزابيل الليندي"، الأمريكيون مهووسون بالأدب اللاتيني كهوس أنايَّ المولعة بالوصول.. التفتُ إلى الآخرين حولي؛ الصمت يأكل جميع الأفواه، عدت بناظري إلى طواحين الهواء والطبيعة الساحرة التي تقلب صفحاتها أمامي، يكفي لمغترب يمني يكتشف المكان للمرة الأولى، أن يقرأ وجوه الناس وتفاصيل السحر الماثل للعيان.. حين اقتربنا من بحيرة "أونتاريو"، كان القطار يمشي ببطء على غير عادته، وكأنه شعر بلهفتي

تجاه من لا يفارقني طيفها منذ وطأت روحها ضفة قلبي، فأطل بي على صورتها المرسومة على صفحة ماء تلك البحيرة المنسية كنبضي؛ ليُشقِي مشاعري التي أرهقها ظمأ البحار. حاولت نقل ناظري إلى الضفة المقابلة لكنه عاد إليها وقد تراءت لي كحورية تلوِّح بكفيها وهي مستلقية على سطح البحيرة، نهضتُ ومددت إليها يدي التي كادت تلامسها لو لا تزايد سرعة القطار الذي حال دون تلاقينا.. عدت إليَّ وقد ازدحم خاطري بعدد من الأفكار والتطلعات والمواقف القديمة والوجوه الجديدة التي تفصلني عنها بحيرة أخرى ترمش بعينيها الزجاجية المستديرة من خلف النافذة، مساحة شاسعة للفرجة وزرقة مثيرة للاشتهاء، الغيوم تلتهم عربات القطار، وروحي الوثابة تشرئب نحو المحطة الأخيرة.

أخذت التاكسي إلى منزل "محمود" بحسب العنوان الذي أعطاه لي "محسن"، أخبرني السائق بأن المكان بعيد لكنه في منطقة جميلة مغطاة بالأشجار على ضفة نهر "روج"، استقرت روحي، وبدأت أتخيل الأيام التي سأقضيها هناك، أخرجت هاتفي لأخبر "محموداً" بأنني في "ديترويت"، سألني عن المكان الذي أنا فيه، فأجبته بأني في طريقي إلى منزله بحسب العنوان الذي لديَّ، صمت هنيهة ثم طلب مني أن أعطي

الهاتف لسائق "التاكسي" التي تقلني، توقف السائق قبل أن يأخذ مني الهاتف ثم استدار إلى الخلف عائداً من ذات الطريق التي أتينا منها، كان "محمود" قد طلب منه أن يوصلني إلى محله التجاري في "Brush st"، لم أشعر بسعادته حينما عرفني، كان رده بارداً على عكس ما توقعته منه، قلت لي: لعل انشغاله بالعمل هو الذي جعله يرد بهذا الشكل غير المتوقع، كان سائق "التاكسي" منشغلاً بمكالمة هاتفية مع زوجته أو ربما صديقته كما يبدو من خلال انتقائه أرق المفردات، بينما كنت مندهشاً وأنا أرى المطاعم اليمنية ومحلات الخياطة والملابس واللوحات التجارية المكتوبة بالعربي وبأسماء يمنية، كأني في "حوض الأشراف" بمدينة "تعز".

خرج "محمود" من خلف الـ "كاشير" حين رآني أطل من الباب، أخذني بحضنه قائلا: "الحمد لله على السلامة يا شيخ، أين رجعت باللحية؟! شكلُك قدُك أمريكي من صدق"!

لم يدعني أجيب، تحدث إلى أحد عماله، وهو يحشر رأسه الذي اشتعل شيباً في ثلاجة المشروبات، أخرج علبة عصير وقدمها لي، ثم طلب مني الانتظار على الدكة المقابلة للـ"كاشير" رقم (١) في زاوية "الهول سيل" الذي يمتلكه، بقيت أتأمله من هناك وهو يتنقل بخفةٍ من

"كاشير" إلى آخر ومن زاوية إلى أخرى، لا يكاد يستقر في مكان حتى ينادوه من آخر، فينهي حديثه ويذهب طائعاً، يرتدي ثياباً قديمة، لا تصدق حين تراه أنه ثري يملك محلات تجارية وعقارات ولديه مجموعة من العمال يديرهم بكفاءة عالية واقتدار، بل تظنه أحد عمال النظافة. ما زلت في تلك "الدكة" الخالية إلا مني، بدت لي الأشياء من حولي غريبة وهي تقفز إلى الفراغ، تمنيت أن يصمد ذلك الوهم الذي عايشناه ردحاً من الزمن قبل أن تأتي البيئة المدنية المتفلتة من التواصل الإنساني؛ لتكشف حقيقته الموجعة.

انقضت ساعة أو ربما أكثر، تذكر "محمود" أن له قريباً ركنه في الزاوية البعيدة وحيداً فأقبل نحوي، طلب مني اللحاق به، ظننت أنه سيأخذني إلى منزله، لكنه صعد إلى مكتبه المعلق على سقف "الهول سيل"، سألني عن رغبتي في الخروج إلى مطعم "الوحدة" للمأكولات اليمنية لتناول وجبة العشاء، لكنني كنت متعباً أبحث عن وسادة يمكنني أن أضع عليها رأسي؛ لأتخلص من الإرهاق النفسي والجسدي الذي يعتريني، شعر بذلك فطلب وجبة عشاء إلى المكتب، كان يحدثني عن معاناته قبل دخوله "أميركا" وصعوبة الطرق التي سلكها للحصول على الثروة التي يمتلكها اليوم، وفي ذات الوقت يفرز الدولارات المعبأة

في أكياس جمعها من المحاسبين، قلت لي وأنا أراه يضع "رُزم" الدولارات داخل حقيبة صغيرة قبل نقلها إلى حيث لا أدري: لماذا لا أطلب منه مبلغاً كبيراً كي أعود إلى "نيويورك" وأشارك بنصف "دكان" أو على الأقل ثلث ينتشلني من حالة الإفلاس التي أنا عليها، لا أظنه سيمانع في تقديم أي مبلغ أطلبه منه مادام يمتلك كل هذه الثروة، حتماً سيشجعني؛ لأكون رجل أعمال ناجح، لكن لماذا نيويورك؟

أليست "ديترويت" أفضل، يبدو أنها ملائمة للنجاح أكثر من غيرها.. هكذا تبدو لي الصورة من الوهلة الأولى، لكنني في الحقيقة لم آتِ من أجل ذلك، يجب أن أحصل على المبلغ الذي طلبته أمي وبعدها بإمكاني أن أقترض منه المبلغ الذي أريد، لا يهم في أي ولاية أنشئ مشروعي الكبير، فكل "أميركا" تفتح أذرعها الواسعة والممتدة لي ولأحلامي.. أشار لي "محمود" أن أتناول الطعام الذي وصل لتوه، وأخذ الحقيبة الصغيرة متجهاً إلى الخارج، طلب مني قبل أن يلتهم الباب شعره الأبيض أن أستعين بأحد العمال ليريني الغرفة التي سأقيم فيها في سكن العمال؛ كونه مضطراً للذهاب إلى محطة البترول التي يمتلكها في "هامتراميك" فقد حدثت مشاجرة بين ابنه الكبير وعامل مكسيكي أراد دولارين زيادة على أجره اليومي، أصبت بحالة ذهولٍ، لم أعد قادراً على

الصمود في وجه المتاعب التي تفرض حضورها في طريقي، كلما حاولت الفكاك منها أعادتني - قسراً - إليها، يجب أن أعثر على ممرٍّ سريٍّ يأخذني إلى حيث أستطيع أن أجمعني في هذا المساء المبعثر.

أنا جائع بالفعل، الجوع يتّقد شرره رويداً حتى يكاد يحرق معدتي، لكن الطعام يعلق في حلقي ويأبى النزول، أشعر بإرهاقٍ ووهنٍ في جسدي، خصوصاً بعد أن سرت راجلا إلى سكن العمال الذي يبعد حوالي كيلوهين، تمنيت أن ألوذَ بالنوم هرباً من الوجع الذي يجثم بكل ثقله على صدري، أخذتُني إلى تلك الغرفة الضيقة التي اختارها لي "محمود" ابن عمي لتكون مكاناً لإقامتي بعد أن طلب من ابنه الأوسط "نبيل" إخلاءها والانتقال إلى الشقة الأخرى القريبة من "الهول سيل"، ما إن وضعت رأسي على الوسادة حتى شرعت أخوض معاركي مع "الكتن"(١) من جهة وصدري الذي يخفي القهر والوجع الكتوم من جهة أخرى، "الكتن" تلاحق اليمني أينما ذهب! لقد رحلت من اليمن مع رحيل الإمامة ولم يعد لها وجود إلا في حكاوي العجائز، لم أكن أتوقع أن أراها في "أميركا" الدولة التي تسابق العالم لغزو الفضاء، إنه قدر اليمني

(1) **الكتن**: حشرة البق صغيرة الحجم شكلها مسطح ولونها بني ورائحتها كريهة، تتغذى على الدماء، وتجيد الاختباء في الفراش والزوايا المختلفة.

مع هذه الحشرة التي ترمز إلى التراخي والكسل وتعطيل الأعمال وقلة الحيلة، ومع أن المغترب اليمني ينحت نجاحاته على صخر واقع مليء بالمنغصات إلا أنه يتساهل أو يهمل وسائل راحته وأبناءه، فهذه الغرفة الصغيرة المظلمة المليئة "بالكتن" هي المكان المخصص لإقامة "نبيل" الابن الأوسط لمحمود رغم امتلاكه لـ"فيلا" فخمة في أحد ضواحي "ديترويت" تطل على نهر باذخ الجمال، ولها حديقة واسعة مليئة بالأشجار المثمرة، بالإضافة إلى أنه يمتلك عدداً من البنايات السكنية، لكنه يدفع بابنه للسكن مع العمال؛ كي يشعر بقيمة "الدولار" كما يزعم، لكن، هل أراد - أيضاً- أن يعلمني شيئاً من الدروس التي يلقنها لأبنائه فحشرني في هذا السجن المرعب؟! أم أنها إقامة مؤقتة حتى يقضي مشاغله، وسيأتي؛ ليأخذني إلى "الفيلا" التي يقيم فيها؟.. لا أدري لماذا ما يزال لدي بصيص أمل يرفض أن يخبو في أعماقي!!

***

وضعت رأسي على الوسادة ولففت "المنشفة" التي أخرجتها من حقيبتي حول رأسي، وضعت الرداء القديم على جسدي ثم نفضته برجلي، أخذت وضعية الجنين في بطن أمه، بذلت جهداً كبيراً في البحث عن سِنَةٍ، حين بدأت تسري تحت جفني شعرت بكتيبة مدرعة من

"الكتن" تزحف على جسدي، نهضت فزعاً، حاولت إبعادها؛ لتسقط لكن بعضها ما تزال أقدامها اللزجة متشبثة بشعر صدري وكتفي وذراعي، أضأتُ النور واستخدمت قطعة قماش لإسقاطها والتخلص منها، كانت رائحتها الكريهة تحاصرني في زاوية الغرفة، أخذتني وذهبت إلى الحمام، اغتسلت وتوضأت ثم عدت لأصلي سائلاً الله أن يفك أسر أحلامي، ويفتح لي نافذة أرى منها لحظة التقاء الكاف بالنون، أعيش متهيئاً لمثل تلك اللحظات التي أمنيني الوصول إلى سدرة منتهاها، حين فرغت من الدعاء نهضت لأفتح النافذة الوحيدة في الغرفة باحثاً عمَّا يعيد ترتيب أنفاسي المتهالكة، حللت الخطاطيف، وبدأت سحب درفتي النافذة، غير أن المسامير الصدئة المتيبسة في الأطراف الملتصقة بالجدار تمنع فتحهما لأعود خائباً كعادتي.

بقيت نصف واقف وقوافل صمتي توغل في المكان أتأمل تلك الحشرات الصغيرة، وهي تتقاسم دمي ووقتي، لم أعد أدرك أمام كل هذا العناء، هل ما زلت حياً أو أنني أعيش حالة موات بلا موت؟!

في اليوم التالي خرجت أبحث عن "محمود"، لا أود البقاء في هذه الغرفة، أخرجت الهاتف لأتصل به لكنني سرعان ما ألغيت المكالمة وأعدته إلى مخبأه، قلت: لعله نائماً في هذا الوقت المتقدم من النهار، كان

الجوع يحد سكاكينه في أمعائي، سرت في الشارع الموازي للسكن الذي بت ليلتي المشؤومة فيه كمتسولٍ يود أن يلوذ بكسرة خبز، أنهكني التعب، وكدت أفقد الوعي قبل أن أجدني أمام "مطعم سبأ"، طلبت من النادل "وصلة كبدة" كبيرة؛ فنظر إليَّ مستغرباً، حين رآني وحيداً، فحركت رأسي: أن لا عليك، هو لا يعلم أنني دون طعام منذ يومٍ ونصف من الإجهاد والجوع والسهر، قدم لي الخبز وبعض المقبلات وتأخر لبعض الوقت في إعداد "الكبدة"، ولم يعد حتى وجدني قد التهمت كل ما قدمه لي؛ فتبسم مدركاً ما أنا فيه، المطعم مليء باليمنيين والعرب أيضاً وقليل من الأجانب، صور مألوفة ولهجة "الشِّعِر" وبعدان" تكاد تكون هي الغالبة، المطعم يضج بمن فيه بصورة مختلفة عن المطاعم الأخرى: "واحد رشوش" صار لي زمن طويل لم أسمعها، اليوم تعود إلى ذهني؛ لتنعشه بعد رحلة مريرة من الغياب، فرغت من الطعام، وتوجهت لأغسل يدي فإذا بـ "محمود" يتناول فطوره بالطاولة القريبة من المغسلة، وجدتها فرصة لأقف على حقيقة هذا الرجل، هل بإمكانه أن يقرضني المبلغ الذي أتيت لأجله أو يدعني أغادر تلك الغرفة التي تشبه سجن "حجة" أيام الإمام أحمد بن حميد الدين؟! جلست إلى جواره وهو يتناول فول معمول في "حرضة"، رائحته تفتح

النفس، استقبلني بابتسامة عريضة، وطلب مني أن آكل معه، كان يبرر ما فعله في الأمس بالمشكلة التي حدثت بين ابنه الأكبر والمكسيكي والتي تطورت حتى كادت تصل إلى الشرطة، لولا أنه حسمها وتخلص من العامل "المكسيكي" بذكاء، قال لي: إنه اشترى "قات" وسنخزن سوياً في مكتبه بـ"الهول سيل" بعد أن نتغدى "عصيداً ومرقاً"، لم يحدد أين سنتغدى، امتلأتُ فرحاً وأنا أستمع إليه، شعرت برابط الدم الوثيق الذي يربطني به، قلت لنفسي: سأفاتحه الآن حتى إذا ما ذهبنا للغداء في منزله سيعطيني ما طلبته منه، وبعدها بإمكاني أن أقضي ما شئت من الوقت في الفسحة هنا، وأعود إلى "نيويورك"، لكني ترددت بحجة أن أحدثه بعد أن أقضي فترة الفسحة خصوصاً وقد بدا لي مستعداً لتنفيذ ما أطلبه منه، دعوته لي للغداء في بيته - كما فهمت- جعلتني أطمئن أن كل شيء على ما يرام، وأنه، فعلاً، سينقلني للإقامة في "فلته" الفخمة.. بعد هنيهة من شرود قررت أن أحدثه بما جئت من أجله، لا وقت لدي للتأجيل، قلت له بصوت مملوء بالحشرجات أرخاه ذل الحاجة: إخواني في اليمن بحاجة إلى فيز للعودة إلى السعودية، المعيشة في اليمن متعبة، أمي ربطت رضاها عني بتوفير قيمة الفيز لإخوتي، أنا بحاجة إلى عشرة آلاف دولار، ولن أتأخر عن سدادها، لم أجد أحداً ألجأ إليه يابن عمي، سواك.

صرف وجهه عني وأخذ يحدق في الخارج، مسح يديه وكأن كلامي سد نفسه عن الطعام قائلاً : "عادنا اشتريت عمارة كبيرة والبيمنت حقها مرتفع وكل دخلي لا يكفي لسداده، أنا خايف يشلها عليَّ البنك، والله ما أقدر أسلفك حتى ألف".

❊ ❊ ❊

تركني أحتسي صدمتي وتوجه نحو المحاسبة، حاسب على إفطاره، ثم عاد إلي قائلا: نلتقي هنا الرابعة عصراً نتغدى "عصيداً ومرقاً" ونروح نخزن بالمكتب.

حاولت الإمساك بكياني المرتعش، أشعر بدوار في رأسي يكاد يعصف بي، الأرض تمور تحت أقدامي، لم أدرك في زحمة الصدمات ما الذي يتوجب عليَّ فعله الآن بعد أن فقدت كل وسائل الحيلة، وأضحى على قلبي غطاء سميك من الوجع، وكأني به قد صب من زبر الحديد وأفرغ عليه قِطْراً.. تماسكت بعض الشيء، وخرجت أسير في شوارع "ديترويت" بمنظر أشبه بالمشردين، سرت في شارع "W Jefferson Ave" على امتداده دون وجهة حتى وجدتني أنعطف إلى الشمال لأرى في مواجهتي نافورة "هوراس" "Horace E. Dodge fountain" ، بقيت لبعض الوقت هناك أسرح بخيالي في آفاق بعيدة، وأهيم عبر اللحظات المضنية باحثاً عمن يتناولني؛

كي أقف على مشارف الجرح، أستدعي بآمالي المتهتكة نقاط ضوء مرت بحياتي علها تساعدني في تجاوز الواقع الذي لم يعد محتملاً، اجتاحني شرود ثقيل لم يقطعه سوى خرير الماء المتدفق من النافورة، وصياح الأطفال الذين يلعبون بالقرب منها، تركت النافورة وسرت في الشارع المقابل لها "Atwater st" حتى وجدت شجرة وارفة بالقرب من قاعة الحفلات "cobo Arena" بمحاذاة قارب الأميرة ديترويت "detroit princess riverboat"، جلست، وأسندت رأسي إلى جذعها، شعرت بظلها يحنو عليَّ، ما أجملها من لحظة حين تنيخ هامتك تحت شجرة وارفة ترتب لك موعداً مع غيمٍ يمد ذراعيه لاحتضانك بعد أن جئته لائذاً من قهر الرجال، سترخي العنان لأفكارك كيما تجول في الأفق تفتش عن ضوء يغسل خطاياهم، زادت دهشتي وأنا أرى نهر "ديترويت" أمامي، كنت بحاجة لأن أقف في مواجهته؛ ليزيح عن كاهلي كل ما علق به من مآسٍ، شعرت بجلال وهيبة النهر وما يمثله بالنسبة للمنكسرين والعشاق حين رأيته يحتوي بعض المحبين بين ذراعيه، ويمسح بحنان فريد وجوههم وأرواحهم المتعبة، الحب هو "الذي يجعل كل الأنهار مقدسة مثل: نهر الغانج، ويحوِّل كل عبارة آية إلهية" كما يقول حكيم هندي، كان التعب قد أخذ مني كل مأخذ بينما منحني ظل الشجرة تهويدة النوم، غفيت ملء عيني لكن روحي بقيت تردد في صدر النهار شهيقها، أيقظني "محسن" بمكالمة هاتفية يسأل فيها عن أحوالي، أخبرته بما

حدث، فضحك ضحكته المعهودة، ولم يواسني هذه المرة كما يفعل معي دائماً، أعطاني عناوين أشخاص من قريتي موجودين في "ديتوريت"، وطلب مني أن أذهب إليهم علَّ أحدهم يقرضني المبلغ الذي أحتاجه، استحسنت فكرته حتى لا أعود إلى نيويورك خالي الوفاض، بدأت بـ "سليمان" ابن عدل قريتنا، الذي اعتذر لي من الوهلة الأولى لطرح الموضوع عليه؛ كونه وصل من اليمن منذ يومين فقط، وبدأ يستطرد متحدثاً عن علاقته بشريكه، وكيف عبث بالمحل أثناء غيابه، لكنني تمكنت من الخلاص منه ومن حديثه الذي لا طائل من ورائه، متحججاً بأن ثمة من ينتظرني في الخارج.

أثناء خروجي، لحق بي "طه"، كان يبحث عن عمل عند "سليمان"، لم أعرفه في البداية لكنني احتضنته بشدة حين تبينت من ملامحه أنه ذاك الصحفي الذي التقيته في "السدة" عندما كنت مع أبيه في طريق عودتي الأولى إلى مديرية الشِّعِر، سألته مستغربًا:

- أي رياح قذفت بك إلى هذا البلد، هل سئمت وطنك ووظيفتك أيضا ؟

- لقد ضاق بنا الوطن ذرعاً وضقنا به؛ فقررت السفر بحثا عن مصدر رزق كريم نؤمن به المستقبل ..الوطن باقٍ.

- حدثني عن أبيك وعن أحواله ؟

أبي رحمه الله وغفر له، قتل مع الحوثيين في "صعدة" أثناء الحرب الأولى.

- يا ألله ! وكيف أصبح وضعك بعد ذلك ؟

- اقتحموا بيتنا في القرية، وروعوا النساء والأطفال، واقتادوني إلى السجن؛ فمكثت فيه أكثر من ثلاثة أشهر، لقد اتهمونا بالحوثية.

- هل انتهت الحرب؟

- ما إن تنطفئ حتى تشتعل من جديد وبصورة أكثر اضطراماً وجحيماً، يبدو أن هناك من يسعى إلى توسيع دائرة الحرب وتحويل الأطراف اليمنية إلى مجرد أدوات لتصفية حسابات إقليمية وتنفيذ أهداف مشبوهة هي أبعد مما نتصور.

- نسأل الله اللطف والسلامة.

كانت الساعة تستدرجنا إلى مساءٍ آخر، طلب مني الصعود إلى السيارة التي يقودها لإيصالي إلى حيث أرغب، ما إن صعدت حتى أخذني في جولة داخل المدينة بحثاً عن "مخبازة ومطعم بلقيس" قال: إنه فتح منذ أيام، وأن طعامه لذيذ، وفي ذات الوقت أسعاره مقبولة مقارنة

ببقية المطاعم اليمنية، طلبت منه أن يجد لي فندقاً أقيم فيه يوماً أو يومين؛ كوني لا أمتلك بطاقة أو أي وثيقة تخولني دخول الفنادق أو الإقامة في أي مكانٍ آخر، لكنه أقسم ألا أبيت إلا معه، فلديه شقة فارغة، ليس بها سواه، سألته إن كانت له فأجابني:

- الشقة والسيارة لصديق تعرفت عليه قبل ثلاث سنوات، أبوه وزير في اليمن ومقرب من الرئيس "صالح"، التحق في جامعة "وين ستيت" "Wayne State University" لأنه لم يتمكن من الالتحاق بجامعة "هارفارد" "Harvard University"، هو شاب ثري يعبث بالمال بطريقة مجنونة، حاولت معه أكثر من مرة أن يهتم بدراسته أو على الأقل ينشئ له مشروعاً تجارياً يحفظ له الأموال التي يهدرها دون فائدة، لكنه كان يغضب مني، ويعتبر نصحي تدخلاً في خصوصياته، الحسنة الوحيدة التي فعلها أنه اشترى شقة في "Griswold st" وسط المدينة "Downtown" وإذا ما أراد بيعها هذه الأيام سيحصل على ثلاثة أضعاف المبلغ الذي اشتراها به، ترك لي الشقة والسيارة الشهر الماضي وسافر اليمن.

- لكني لا أود أن تترك عملك وتنشغل بي.

- أنا لا أعمل هذه الأيام، تركت الشغل منذ يومين، بعد أن رفض "محمود" ابن عمك أن يرفع راتبي.

- هل كنت تشتغل في "الهول سيل" حق محمود؟

- لا، كنت مسؤول محطة البترول منذ سنتين، لكنني حين طلبت منه أن يرفع راتبي الأسبوعي 50 دولاراً رفض ذلك وساومني بين البقاء على نفس الراتب أو ترك العمل، هذا رجل مادي، لا يعرف في هذه الحياة سوى جمع المال، لا تصدقه حين يظهر لك أنه مسيطر على أبنائه، وأنه يهتم بهم، ويعلمهم التجارة، فالحقيقة عكس ذلك تماماً، إذ إنك حين ترى بناته لا تصدق أنهن يمنيات، في هذا البلد يا "شيخ محمد"، إذا لم تتابع أبناءك، وتهتم بهم فإن مصيرهم الحتمي هو السقوط في منزلق الغواية والانحراف.

- دعني من "محمود" وأبنائه الآن، لا أرغب في الحديث عنهم ولا عن سواهم، ولا حتى عن اليمن؛ لأنني كنت ما زلت مصدوماً، لم أفق بعد، قطعاً لم أتوقع أن يقابلني بتلك الصورة، ولا أن يتخلى عني في الوقت الذي لجأت إليه كحبل نجاة -قاطعت "طه" ولم أدعه يكمل حديثه- طلبت منه إيصالي لأخذ حقيبتي والعودة إلى الشقة التي يسكن فيها؛ كوني لا أحتمل الصمود في وجه عاصفة الإجهاد التي تضرب أجزائي.

الشقة مدهشة: ثلاث غرف، وصالة واسعة، ومطبخ أنيق، وحمامان،

وشرفة ترى منها جزءاً من "ديترويت" وهي تسترخي على شاطئ النهر، فضلاً عن نوافذ الغرف، فلكل واحدة منها إطلالة مختلفة عن الأخرى، أثاث الشقة حديثٌ، وكل وسائل الراحة متوفرة، قلتُ لنفسي: يبدو أنني عثرت على المكان الذي تزهر فيه الأرواحُ الذابلة، لكنني عدت لأقول: أنا في الحقيقة لم آتِ لأزهر، كنت قد شعرت من خلال حديثي مع "طه" أن ظروفه صعبة، وأن حاله من حالي، ما جمعه من العمل أرسله إلى اليمن دون أن يدخر له شيئاً؛ لذلك لم أعرض عليه ما جئت من أجله، بل أشعرته كأني مللت مني ومن العمل ومن "نيويورك"، وجئت لقضاء فسحة قصيرة؛ لتجميع الذات بكل انشطاراتها وتفتتها، وإعادة ترميمها وصوغها بالضوء.. تركته ليلة ذاك ودخلت الغرفة التي خصصها لي، أخرجت رأسي من النافذة فإذا الفراشات تحلق حول مصباح يقف وحيداً بالشرفة المقابلة، وأنثى مدهشة تداعب خدها بوردةٍ حمراء مدمنة التوهج فتمنيت لو أن قلبي معي، أغلقت النافذة وأويت إلى فراشي، كنت منهكاً، ساحت بي الذكريات والأفكار وطفت في آفاق بعيدة حتى أراحني النوم مني.

* * *

صباح اليوم التالي أيقظت "طه" وبدأنا نجوب شوارع "ديترويت"،

المدينـة الأكثـر جـذباً للعـرب والمليئـة بمـصانع الـسيارات والـشركات العملاقة، مررنا بالقرب من البريد العائم، وغمرتني الدهشة وأنا أرى محلات اليمنيين المنتشرة في كل مكان، لم أتمالك نفسي حين شاهدت شـارع "وارن" بمطاعمـه العربيـة يـشكل إحـدى الواجهـات الرئيـسية للمدينـة، طلبـت مـن "طـه" أن يوصـلني إلى العنـاوين التـي زودني بهـا "محسن"، لم أكشف لـه عـن سر تـنقلي مـن مكـان إلى آخر، قلـت لـه: إنني أستغل فرصة وجودي هنا؛ لأسلم عليهم وحسب، كـان أحد محلات اليمنيين التي زرتها بالقرب من المتحف العربي الأميركي في "ديربورن"، أشار عليَّ "طه" بالدخول والتعرف على محتوياته.. يشعرك المكان منذ الوهلـة الأولى لولوجـه بجماليـة البنـاء ولمـساته العمرانيـة الـساحرة، خصوصاً القبة التي تتوسطه، وثائق المتحف ومقتنياته تسلط الضوء على تنوع المجتمع الأمريكي، قاعـات واسـعة تعـرض الإنجازات العلميـة والتاريخية للمهـاجرين العرب، وتوثـق هجراتهم إلى "أميركـا"، انتـابتني الدهـشة وأنـا أقـرأ في إحـدى المخطوطـات: أن أول هجـرة عربيـة إلى "أميركا" الشمالية كانت في عام 1528 لمواطن من المغرب العربي، كما أن مخطوطة أخرى فيهـا قـصة العـرب النـاجين مـن غـرق الـسفينة تايتانيـك والتي كـان على متنهـا مئة وأربعة وخمسون راكباً لبنانياً، نجا منهم تسعة

وعشرون راكباً وتوفي الآخرون، المتحف وثق هجرة أعلام عربية بارزة كـ :الأديب "جبران خليل جبران"، والعالم "أحمد زويل" وغيرهم.. أروقة المتحف التهمت منا بقية اليوم؛ لنعود في اليوم التالي إلى زيارة مصنع "فورد بيكيت افنيو"، سرنا على الألواح الأرضية البالية الأصلية وشد انتباهي المركبات النموذجية المبتكرة، والغرفة التجريبية التي طور منها "فورد" أفكاره، ثم زرنا مكتبة ديترويت العامة، والمعبد الماسوني حيث العمارة القوطية الكلاسيكية المبنية بالحجر الجيري لإنديانا، ومعهد الفنون، والبريد العائم، مذهل ذلك القارب الذي يقوم بتسليم البريد إلى السفن.. أصر "طه" أن يريني الأحياء التي تعج باليمنيين، أحد المنازل الصغيرة مبني بالطريقة المعمارية اليمنية، وهو لعائلة يهودية من أصل يمني، "طه" إنسان نبيل وطيب القلب، لم يألُ جهداً في محاولة إرضائي والتنقيب عن مواطن الجمال الذي أبحث عنها، أحرجني بكرمه واهتمامه بي طوال الوقت، كان يبذل قصارى جهده لاكتشاف المناطق التي بإمكانها أن تسعدني، هو لا يدرك أن سعادتي تكمن في التخلي عني وملامسة قدم أمي، كل الطرق المؤدية إلى رضاها موصدة، طلبت منه إيصالي إلى محطة القطار للعودة إلى "نيويورك" وقد حضرتني مقولة الروائي البرتغالي "جوزيه ساراماغو": "السعادة لا تُكتسب، لكنني أريد

أن أكتسبها، لم أعد أحتمل البقاء هنا، كل شيءٍ مات، حياتي أخفقت، وأعيش مثل غريبٍ".. حاول "طه" أن يبقيني ليومٍ رابع في "ديترويت" لكنه حين لمس إصراري على الرحيل حمل حقيبتي، وأخذني إلى المحطة، ودعته بمرارة بعد أن احتضنني بقوة كمن لا يريد الفكاك، بكيت دون دموعٍ، كمية كبيرة من الدموع تسيل في أعماقي، البكاء الصامت أكثر إيلاماً، لم يعد بمقدوري البقاء في هذه المدينة التي أوصدت صلة القرابة فيها أبوابها، لا يعزُّ علي سوى فراق "طه" الإنسان النبيل الذي روحه جزء مني.

❊ ❊ ❊

خلدت إلى النوم طوال فترة الرحلة، ما يزال الهدهد يرقب اشتياقي على بعد رمشين ونافذة، ولا يأتيني منها بنبأ يقين، خرجتُ من محطة القطار مثقلاً بالإحباط والاكتئاب والهزيمة، سرتُ بالاتجاه المقابل للمحطة أبحث عن "تاكسي".. عن نسمة تعصمني من الشوق، الشارع خالٍ من "التكسيهات" في هذه الساعة، فجأة رأيت من بعيدٍ طيف أنثى أعرفها، ساورني الشك أنها هي، وحين أمعنت النظر تأكدت أنها هي بالفعل، أحسست أن كل جزء من جسدي ينقبض، داهمتني حالة ارتباك مفاجئة وأنا أراها تسير في الرصيف المقابل بجلال ملكة تخشى سقوط

التاج عن رأسها، وتسير بجوارها امرأة كبيرة بالسن فامتنعت عن الاقتراب منها أو الحديث إليها، كان الصليب يلمع في صدرها؛ ليضيء جنبات روحي المعتمة، وكأنما احتكر الضوء في موضع الحب الإلهي، خفقات قلبي تتسارع وتضطرب، ليست يهودية كما قال "محسن"، تمنيت أن تلتفت باتجاهي لتراني، لتكلمني، كلمتها هي لحظة ولادتي، لحظة عناقي مع السماء والنجوم والأرض وكل الأسرار المقدسة في هذا الكون، لكنها تسير بخطوات مدروسة متقنة، لا ترى أبعد من موضع قدميها، تجلت فتنتها نوراً؛ فاستفاق المدى من غفوته، روحي الآن تبكي سجوداً وخشوعاً لذلك الضوء، بقيت أبصرها حتى توارت من أمامي ودخلت محطة "الأوتوبيس"، حرارة قلبي مرتفعة، لقد أصبت للتو بضربة ولهٍ جديدة، أشعر بحمى الشوق تلفح أعماقي، يا لخفقان قلبي وهي تهدهدني بين المكان واللامكان، بدأت أهذي: أيتها العالقة في أغصان أوردتي، أود الرحيل إليّ فقد اشتقتني.. أيها الطيف المسافر، أما آن لك أن تشيعني إلى مثواي الأخير (رمشيها)، فقد صرت تائهاً دونها، لا منفى يضمني ولا وطن.

استقللت أول "تاكسي" وطلبت منه اختيار الطريق السالك للوصول إلى "دكان" "محسن" سريعاً لعلني ألتقيها هناك، لكنني ضربت

رأسي نادماً، لماذا تسمرت مكاني حين رأيتها تغيب في المحطة ولم ألحق بها لنركب "الباص" سوياً، ربما كنت أستطيع اقتناص اللحظة المناسبة للحديث إليها أو على الأقل أدع روحي تتشبث بمقلتيها كما تشبثت المجلية بيسوع، لم أدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان، أنا بالفعل رجلٌ مهزوم، مشطورٌ بين جدارين متباعدين، أحدهما في "أميركا" والآخر في اليمن، أخوض معارك الحب هنا، وآلام العناء والغياب هناك، لا ظل لي ولا سعف.

قابلني "محسن" بضحكته المعهودة، كان يدرك مسبقاً أنني سأعود بخفي حنين، لكنه أراد أن يوقظ غفلتي، لطالما وقف إلى جانبي في أشد الظروف وأحلكها، خرج من خلف "الرجستة" وقبل أن يصافحني أخبرني أنه صباح اليوم حوَّل المبلغ المطلوب إلى اليمن باسم ابني الأكبر "عمر" وتواصل معه حتى سلمه إلى جدته، أشرقت السعادة على قاربي الآيب من زوبعة التخبط بين الانهيار والهزيمة، وجنح شراع روحي إلى مرفئه هانئاً، ما استطعت حينها أن أشكره، عجزت عن استجلاب مفردات الشكر التي تليق بمقامه، اغرورقت عيناي بالدمع، بكيت من شدة الفرحة، أدرك "محسن" ذلك فطلب مني الذهاب إلى السكن للراحة بعد السفر والعودة باكراً لاستلام "الدكان".

كان يوماً جميلاً، لا أود أن ينتهي أو يطويه يوم آخر، لأول مرة أشعر بالسعادة الكاملة من زمن، هاتفت أمي فأجابت وهي تلهج بالدعاء، لم تدعني أحدثها بل ظلت تدعو لي بكلمات وأدعية جديدة لم أسمعها من قبل، قالت: إن لسانها لم يتوقف عن الدعاء منذ وصول "عمر" صباح اليوم، انتهى الكرت وأنا لم أنبس ببنت شفه، قلتُ لي حينها: يبدو أن المفاجأة التي استفتحت بها وجودي في "نيويورك" جاء بها دعاء أمي، لا شيء ينقذني من واقعي المثخن بالأسى سوى دعاء أمي، وضوء الشمس، ونبض صدفة ما يزال يتخلق في رحم القدر، وحبل روحي السري مع الله.

نمت تلك الليلة ملء عيني، لِمَ لا، وقد عشت اليوم الأجمل في يومياتي التعيسة! نهضت باكراً على أمل أن ألتقي بها وأتحدث إليها صراحة، لا وقت لديَّ لضياع الفرص واحدة تلو أخرى، يجب أن أصارحها بمشاعري نحوها، مرت الأيام ولم تأتِ، انتظرتها، وانتظرتها لكنها لم تأتِ، بقيت أنتظرها ولم تظهر.. اختفت وكأنها لم تكن..!

ما زلت أبحث عن تلك النابتة في أنحائي، مئات الزبائن يترددون علينا كل يوم إلا هي لم تأتِ، كنت أنظر إلى الوجوه كل يوم كمتشردٍ يبحث عما يأويه، أمد روحي للمدى؛ فتعود محملة بالآهات وصنوف

الأسى، تركت العمل وخرجت إلى الشوارع، مشطتُ الحارات القريبة كلها، ذرعتها مشياً، أتطلع إلى النوافذ، إلى الحدائق، إلى الأرصفة، إلى وجوه النساء، إلى محلات التجميل والكنائس، وقفت طويلاً أمام لوحة للعذراء، أريد استنطاقها لعلها الوحيدة التي ستقول شيئاً أو تقودني إليها..!

لا أحد يجيبني، ما زلت تائه الخطى أبحث عنها/عني، عن مفردة تمردت على كل القواميس، ليل المدينة بارد النظرات، وأنا المنسي في الطرقات، أبحث عن ممرٍّ لولبي يأخذني إليها.

فعلت ذلك أكثر من مرة وفي كل مرة كنت أعود إلى البيت حزيناً، لا أحد يدري ما بي سواي، مرت الأيام وغمامة اليأس تزيح الأمل من أمامي والطمأنينة من داخلي، عشت أصعب اللحظات، وأنا أنتظر انبثاق النور المقدس من كنيسة العذراء في أعماقي، يا لـ"نيويورك" العجيبة كيف أنها تخلق الحب حتى إذا ما تكوَّن وبدأ يسري في العروق خنقته دون رحمة! لكني -حتماً- لن أستسلم لقسوة هذه المدينة، سأعثر عليها ما دمت أمتلك ثقة يسوع بنفسه، صحيح أنني لا أعرف عنها شيئاً خلال سنتين.. ثلاث سنين.. من النظرات الصامتة، إلا أنني أشعر كأنها خلقت لأجلي، لكني في الحقيقة أخشى أن تكون متزوجة أو مرتبطة عاطفياً، لا

أعلم ماذا عليَّ فعله ساعتئذ، وبماذا سأجيبها حين تقول لي: إن السيد المسيح ينهى عن اشتهاء زوجة الغير، وأن النظر إلى نساء الغير خطيئة. ليس ثمة داء يفتك بالجسد أكثر من الحُزن والتفكير الزائد، أنا أكثر عذاباً من المسيح منذ عرفتها، أموت كل ساعة وأصلب كل لحظة.

* * *

جاء موعد الاحتفال بعيد الميلاد، تركت الـ"رجستة" لـ"يوسف" وخرجت أجوب الشوارع باحثاً عن ضالتي، عبرت الأرصفة والجسور والطرقات، ومررت في الأزقة، بحثت بين النجوم والغيوم والدقائق واللحظات دون جدوى، وحينما أوشكت على السقوط في شَرك اليأس رأيت ثمة ألعاباً نارية تتصاعد من "بروكلين بريدج بارك" المطلة على البحر، قلت لنفسي: يجب أن أذهب إلى هناك، أحاول البحث عنها لآخر مرة، ربما أتمكن من العثور عليها أو على الأقل أنيخ ركاب أشواقي هناك، ما إن دخلت من باب الحديقة حتى وجدت لوحة يتجمع حولها عدد كبير من الناس المبتهجين بعد أن زُين المكان بالأضواء الملونة ووُضعت شجرة عيد الميلاد وسط طاولة دائرية كبيرة مرتفعة نوعاً ما، كانت متوهجة بعددٍ وافر من الشمع الملون، وبجوارها دمى وردية الخدين، وخيوط حمراء وصفراء تختبئ خلف أوراق الشجرة الخضراء،

اقتربت من اللوحة فإذا هي لمريم العذراء، وهي بهدوئها وكامل جمالها، وفي يدها طفلها الصغير "يسوع" بينما يقف بجوارها القديس "يوحنا المعمدان" والقديسة "آن"، بقيت مشدوهاً إلى اللوحة لبعض الوقت ثم نزلت بناظري أتصفح - تائهاً - وجوه الجموع، جمالٌ خارق آخر يلمع بالقرب من شجرة الميلاد، عدت بناظري إلى اللوحة، العذراء تطيل النظر إليها حتى خلتني أراها حقاً أمامي، ضوء وسلام ينسكبان على وجهها، يبدو أنني -أخيراً- سأعثر عليها، اقتربت منها رويداً حتى تأكدت أنها هي: العيون، الدم، الخجل الشفاف، الصليب المضيء، كان قلبي يخفق بشدة، وأنفاسي تكاد تنقطع، أحاسيس حميمة ومشاعر دافئة تتأجج في سراديب دماغي، ابتسمت حين رأتني أسير نحوها؛ فتشجعت لمصافحتها، لم أكن قبلها شجاعاً بالقدر الذي يجعلني أصافح امرأة، لكنني لم أصافحها وحسب، بل احتضنت يدها بيدي الاثنتين، وبقيت أتأمل الضياء المشتعل في عينيها، لا أتذكر من فرط ارتباكي ماذا قلت لها آنذاك، كل ما أتذكره أنها قالت: إن اسمها "غاردينيا" ثم سرنا نحو الكرسي المقابل لشجرة عيد الميلاد وكفانا متشابكتان، صارحتها بمشاعري نحوها؛ فبادلتني ذات المشاعر مؤكدة بأن قلبها خالٍ من أي ارتباط، قلت لها: إنني فتشت عنها في كل مكان، مشطتُ الشوارع،

حفرت الأرض، سألت النوافذ والكنائس ووجوه الناس دون جدوى حتى كدت أفقد الأمل، كانت تعتذر وفي عينيها ينبوعٌ متدفقٌ من اللوعة، قالت إنها: لم تختف بإرادتها وإنما نتيجة لظروف طارئه أجبرتها على السفر إلى "فيرجينا" المدينة التي ولدت ونشأت فيها قبل مجيئها إلى "نيويورك"، بينما ظلت روحها تتنسم عبق الوردة التي أهديتها إياها وتفتش عني هي الأخرى، وأنها حين عادت إلى "نيويورك" أتت أكثر من مرة إلى المحل محمولة على بساط من الشوق؛ لتراني لكنها كانت تؤوب في كل مرة محملة بالخيبة، كنا أحياناً ننطق كلماتنا معاً ثم نصمت لهنيهة وبعدها ننفجر ضحكاً دهشة وغرابة من سرعة تماهي روحينا ببعضهما، الحب سيد الوقت وسلطانه، كانت قريبة مني أكثر مما تصورت، تلسعني حرارة أنفاسها المتقدة، لم يكن يهمّني أمر من سيراني من اليمنيين، تركت الأمر للبحر يحرسنا ويمنحنا أمان البوح.. لا مكان للخوف الآن ولا للعقل.. لا أود لعقلي أن يعمل.. لن أقبل أن يأتي أحد ليضع لي في هذا الوقت حداً أو حاجزاً أو فاصلة، ما يعنيني الآن أن قلبي هو من يدير بوصلة اللحظة.

البحر يرمي وروده علينا ونحن منتشيان ببرودة نسيمه المنعش الذي يداوي أرواحنا كما داوى الأنبياء، يقولون: إن أيوب وصل إلى شاطئ

البحر متحاملاً على جسده الواهن الناحل المقروح، وألقى جسمه فيه، فأخذه البحر بأحضانه؛ ليخلصه من أربعينية الوجع ويخرجه سليماً معافى.. جسداً مضيئاً يستنشق الحياة بلهفة وشراهة العاشقين، تواعدنا على أمل أن نلتقي اليوم الثاني في نفس الموعد، الأحد يوم الرب والعشاق.

تدهشني هذه المرأة.. يدهشني جمالها، هدوءها، جنوح مشاعرها، تفردها في كل شيء، لكني -حقاً- لا أعلم هل هذا كل ما يغريني بها؟! أنا التائق لأن أخوض تجربة ليست كأي تجربةٍ، لزواج لا يشبهه أي زواج. أتراني قادراً على الخلاص من أوجاعي والوصول معها إلى حيث يشتهي النبض، أم أنني حين أحاول مغادرتي سأجدني متعثراً بي؟

***

تكررت لقاءاتنا في ذات المكان وأماكن أخرى لأكثر من ثلاثة أشهر، اتفقنا بعدها على الزواج شريطة ألا يتدخل أحدنا في ديانة الآخر، ليس ثمة سوى شرط واحد حاول شخص "ما" أن يجعل منه شروطاً ليفسد الود بيننا، لكنها رفضت الرضوخ لتلك الوشاية؛ لتهاتفني بعدها محاولة أن تصف لي ذلك الواشي الذي عجزتُ أن أتعرف عليه.

ترى من هذا الذي يوقظ أسئلتي على صدر المخاوف؟

لماذا يحاول إغلاق نافذتي الوحيدة على الحياة؟

أثمة "سلطان" آخر، أم أنه ذاته المتداري تحت رماد الوشاية..؟

أحياناً تداهم الإنسان السوي رغبة حمقاء تفقده صبره وكبرياءه لبعض الوقت، لكن سرعان ما يتدارك انحداره نحو القاع؛ ليعود إلى مكانه الطبيعي بقليل من الخسائر.

هاتفتها بعد ذلك بيومين، جف الصبر في عروقي، لم أستطع السيطرة على أشواقي تجاه هذه الأنثى التي قلبت حياتي رأساً على عقب:

- "غاردينيا" أعتذر عن إغلاق هاتفي في اليومين الماضيين، كانت نفسيتي منهارة نتيجة للعقبات التي أواجهها في حياتي.

- أقلقتني يا رجل، كدت أجن، لا أعلم أين أنت ولا أستطيع الذهاب إلى "الدكان" لأسأل عنك، والدتي داهمها المرض فجأة فأخذتها إلى المستشفى، وبقيت معها حتى اللحظة.

- فعلاً أنا آسف، لكن قولي لي: كيف والدتك الآن؟

- تحسنت اليوم؛ فقرر الطبيب خروجها غداً.

- أحتاج أن أراكِ يا "غاردينيا" !.

- ليس أكثر مني، فقد افتقدتك كثيراً، أرجوك لا تغب مرة أخرى، لم يعد شيء في حياتي يشغلني سواك، أراكَ في وجه الطبيب وفي الجدران وعلى شرفات الروح، أراك في كل زاوية تصلها عيناي ماثلاً طيفاً يقاسمني وحدتي وجنوني.

- أعدك ألا أفعل ذلك مرة أخرى، لكنك لم تجيبيني، أود أن أراكِ الآن؟

- انتظر، سأتصل بأحد في البيت؛ ليكون إلى جوار أمي وسوف آتيك حالاً.

- لا، أرجوكِ لا تفعلي ذلك.. أنتِ لا تدركين ما قد يصيبني لو حدث لأمك مكروهٌ نتيجة غيابك عنها.

- ليس هناك ما يقلق، لقد تحسنت وغداً ستغادر المستشفى.

- لننتظر إلى غدٍ، سأكون أكثر اشتياقاً إليكِ.

صمتت لبعض الوقت قبل أن توافق على مضض، وددت أن ألتقيها لأحدثها عن أدق التفاصيل في حياتي، عن سجني وزوجتي وأولادي، عن السراديب المظلمة التي عبرتها روحي للوصول إليها، عن البحر الذي يضيق بي ذرعاً، وأنا أختلس لحظات من وقتي؛ لأفضي إليه بخبايا

صدري وأشكو إليه بثي وحزني مما آلت إليه بلادي التي أثخنتها الجراح، قلت أرمي عليها وردة من دموع علها تستبيح فصولاً من ظمأ الانتظار لخيالٍ ضارب في الغياب، كنت بحاجة لأن أختبئ في عينيها، وتطبقَ عليَّ جفنيها ربما أتخلص من أكوام الأوجاع والآلام والأحزان التي لا تنفك لصيقة بي.

أظنني الآن قد تجاوزت فكرة البحث عن أنثى تكون مطية للحصول على الإقامة في بلد العم سام، كما يفعل الكثير من المهاجرين، ليس في "أمريكا" وحدها وإنما في "أوروبا" أيضاً و"كندا"، لم تعد تهمني الإقامة في هذا البلد بقدر اهتمامي بالإقامة في قلب "غاردينيا"، إدهاش الحب أنه يأتي بغتة، دون أن ينتظر استقبالاً يليق به، هو مطر الروح أينما وقع نفع، لا يميز بين الديانات والقوميات والأعراق، لا يفرق بين قصور الأغنياء وبيوت الفقراء، عظمة الحب تكمن في قدرته على الحياة وانعاش القلوب الميتة بإعادة النبض إليها كما يفعل المطر مع الأرض المجدبة.. عظمته في قدرته على جعل أي شيء يلمسه مقدساً كما قال "جلال الدين الرومي".

* * *

في اليوم التالي هاتفتها قبل الذهاب إلى العمل، كنت بحاجة لسماع

صوتها بعدما قضيت ليلتي معتقلاً بيد السهاد، نظرتُ إلى ساعة الهاتف كانت السابعة والربع بعد الشجن، قلت في نفسي: لعلي تقدمت الوقت المباح لقبلة الصباح بخطوة، لكنها أجابت دون أن تترك رنين الهاتف يكمل نداه:

- أنتظرك دون نوم، تضع شيئاً من الصمت بين الكلمات، تواصل: جميل أن أفتتح يومي بصوتك.

- كيف أنتِ يا نبتة الروح..!

- أنا بخير يا قُبلة الرحمة على شفاه قدري ما دمت كذلك!

- لقد بتِ مسيطرة على عقلي، ومستولية على أحاسيسي بالكامل، منذ عرفتك كلما حاولت الهروب من طيفك إلى النوم لفتني الأحلام برائحة اللهفة التي تستيقظ داخلي؛ فأبقى مبعثراً بين الصمت والهذيان على فراشي الخالي من أي حنان.

- أنت تجعلني أحبك بالقدر الذي لا أستطيع مقاومة بعدي عنك.

- لقد رأيتك البارحة في منامي فاستيقظت على جوع عاطفي لا يقاوم، كأن شهيتي لكِ قد تضاعفت في الأيام الأخيرة.

- ماذا رأيت.. حدثني أرجوك.

- في مسائي الموغلِ بالوله رأيت كأن رسالة منك وصلتني على هاتفي المنهك حد السقوط، طلبتِ مني الحضور إلى غرفة نومك، خرجت إلى شوارع الخوف هائماً أحصي خطى عاشقٍ ذاهبٍ إلى موعد حب، فتشت في تلك الشوارع المزدحمة عن رقم البناية التي تسكنينها حتى عثرت عليها، كنت خائفاً وأنا أبحث عن شقتك، فالحب أكبر عملية فدائية يقوم بها واحد مثلي، دلفت إلى الداخل كمن يجر جنونه، لم يكن في الشقة أحد، أبواب الغرف موصدة وكل شيء ساكن إلا خفقان قلبي وعطرك الذي يستقبلني؛ ليدلني عليك.. فتحت الباب قليلاً بكل هدوء، فكان اندهاشي: رأيتك بالمزيج الساحر من رقة الروح وجموح القلب ممدودة على وجهك فوق سرير نومك، تحركين رجليك المتدليتين بطريقةٍ ألانت كياني المتصلب المشدود.. كنتِ ترتدين بلوزة سوداء وبنطلون "فيزون" زيتوني اللون، تدحرجت أمواجه لتتلاطم بي.... صمتُ لهنيهة فترجتني أن أكمل، أخذت رشفة ماء ثم واصلت:

- أمسكتُ رأسي بيدي منذهلاً وسرت نحوك.. كنت غير قادر على كبح جماح أشواقي، وأنا أرى النبع يتحرش بروحي الظمأى، هممت أن أرتشف ما يسد رمقي لكنني خشيت أن يراني أحد، توقفت للحظة ثم فركت عيني بكفي اليمنى قلت: لعلي أتيقن من الإثارة التي تفرض

حضورها أمامي بنهم، كنت كلما أفرك عيني يزداد جسدك إثارة وفتنة وتزدادين لمعاناً، لسعتني نار الرغبة آنذاك فشعرتِ بحرارتها، ونهضتِ من مكانك، أتيتِ إليَّ مسرعة فاتحةً ذراعيك لتأخذيني في أحضانك، ضممتني بعنفٍ حتى شعرت باختلاط وتماهي جسدينا، لم أكن قد وصلتُ حد التماهي مع أنثى من قبل؛ لذلك دخلت في غيبوبةٍ مؤقتةٍ، شعرتِ بها فرفعتِ رأسكِ إليَّ وأخذتِ تتأملين في عينيّ، وتعضين شفاهكِ بصورة جعلتني أترنح وأسند ظهري على باب الغرفة، كنتِ تناولينني مفتاح عالمكِ السِّري، وتسافرين في خصري مثل حبة الأسبرين، وأنا في حالة توترٍ واندهاشٍ، كأي عاشقٍ أحمق، لا يودُّ في هذه اللحظة سوى السيطرة على اللعاب الذي يسيل في فمه!

صمتُّ؛ لبلع ما تبقى في كوب الماء على عجل؛ فصَرخَتْ: أكمل.. لا تتوقف.. كنتُ أتصببُ عرقاً، وصوت لهاثي له رجعٌ في سماعة الهاتف، أخذتُ منديلاً ومسحت به وجهي، ثم واصلت:

صحوت من غفوتي، ونافذة القلب مشرعة على مصراعيها؛ فأمسكتُ بقوامكِ المائل كمنارة الإسكندرية، وحملتكِ إلى السرير، ثم رميتُني بجواركِ، منعتُ جسدي لحظتها من الالتصاق بجسدكِ حتى لا ننجرف إلى حيث لا يشتهي الـ...، مددتُ رأسي إليكِ، ودنوت من

عنقكِ أقبِّلُه، وأسير بشفاه أنفاسي على سفوحه، ونحو الذهب المنثور في زغب الأذنين كأني أقود شِراعاً في منحدر النهر، كانت يدي تداعب خصلات شعركِ الأسود، وتتلمس أطراف ثيابكِ، بينما أصرَّت روحي أن ترتب لنا موعداً آخر قبل أن يستل النهار آخر أنفاس الليل؛ ليوقظني من منامي.. وليته ما فعل!.

- يا ألله.. ماذا فعلت بي، لم أسمع مثل هذا الكلام من قبل، لماذا تأخرت أيها الحب؟

- يبدو أن استرسالي في سرد تفاصيل الحلم أنساني موعد العمل، لقد تأخرت يا "غاردينيا"..!

- لا تتركني أرجوك، لقد بعثرت كياني، وهددت أوتاد استقراري، أحتاجك.. أود أن أظل لصيقة بك.

- إذن يجب أن نتزوج؛ لنكون لبعضنا، ونكتفئ بروحينا، ونضع حداً لعيون الوشاة التي ترصدنا.

- أنا في انتظارك.. لنذهب حالاً.

- ريثما أنتهي من الشغل سأتصل بك..!

* * *

أخذتُني يومذاك وذهبت إلى العمل، ليس لأني أرغب في الذهاب إلى هناك، بل لالتزامي بدوامٍ كامل يبدأ الثامنة صباحاً، وينتهي عند الثامنة مساءً، بقيت طوال الطريق أرتب أمر ذهابي إلى موعد الحب الذي ينتظرني، ليس بإمكان أحد أن يسد الفراغ الذي سيتركه غيابي سوى "يوسف"، لكنه للتو أنهى دوامه وليس بمقدوره مواصلة العمل دون نوم، سحابة تَبَرَمٍ تنعقد بين عينيه، كنت لأول مرة أتأخر عن موعد دوامي، ساعة وبضع دقائق، حاولت الاعتذار والتحايل بكلمات جميلة تطيب خاطره وتجعله يقبل البقاء في العمل لبعض الوقت حتى أتمكن من الذهاب لقضاء عملي، لكنه في البداية أبدى انزعاجه من طلبي رافضاً النقاش في هذا الخصوص، غير أنه استجاب لطلبي حين أقنعته أن خروجي سيكون بخصوص الإقامة التي أنهكني اللّهاث خلفها.

لطالما أحببت الأشياء التي لا تأتي بترتيبٍ مسبق، يريحني أن أغزل الوقائع كما تشتهي اللحظة لا كما رسمها الخيال. التقيت بـ "غاردينيا" عند الثانية عشرة، طلبت منها أن نذهب إلى الجامع ومن ثم الكنيسة، وفي اليوم التالي نصطحب معنا المحامي "كنت" إلى "المجريشن" لتسجيل الزواج، لم تعترض على شيء مما قلته، بل كانت في قمة سعادتها ونحن في طريقنا إلى مئذنة اللقاء الأبدي نستظل بصومعة امتزاج الأرواح، طلبت

منها أن تنتظرني خارج "جامع الفاروق" حتى إذا ما فرغتُ من صلاة الظهر تقدمت إلى الإمام وعرضتُ عليه أمر الزواج، فطلب مني شاهدين؛ ليكمل مراسم فرحتي، قبل أن تنصبه الولاية العلمية وليا عليها لإجراء مراسم العقد.. سألني إن كانت مسلمة، فأجبته بأنها مسيحية، كانت تبدو كذلك، قطعاً، لم أفرض عليها نوعية الثياب التي ترتديها لهذه المناسبة، اختارت أن ترتدي بنطالاً ومعطفاً إلى الركبة وشالا وضعته على عنقها، حين دخلت المسجد غطت به شعرها، بعض الرجال يريدون امرأة نصف جسدها مكشوف حتى يتمكنوا من دخول الجنة بكسوته؛ معتقدين أن نصفها عاهر والنصف الآخر طاهر، غير مدركين أن الصلاح والفساد لا علاقة لهما بما ترتديه من ثياب.

ولدت لحظتها في ذهني فكرة أن نذهب إلى الشقة التي استأجرتها في عمارة "محسن"، براعم جنون شهوتي المؤجلة أزهرت في بستان الحلال وأينعت ثمارها ولا وقت لديَّ لتأجيل القطاف، كانت تسير بجواري مرتدية أنوثة كل نساء المدينة، وأسير معها مرتبكاً أتدبر لجاماً لشيطاني الجامح، عرضت عليها الأمر لكنها تمنعت حتى ننتهي من مراسم عقد الزواج في الكنيسة، أخذتها إلى زاوية بالقرب من إحدى البنايات الشاهقة واحتضنتها، قلت لعلي: أخفف من وطأة الجنون الذي يجتاحني، وأمحو آثار النشوة التي تغمرني، لكني كنت كمن يمرر إسفنجة

لتنظيف زجاج نافذة فإذا به يزيده ضبابية وظلمة، شعرت أيضاً بعدم تقبلها لما قمت به، كأنه إهانة لأنوثتها، فقلت لها: أنت الآن زوجتي، قالت وهي تطوق يدي: ليس بعد. أدركت حينها أنني لست أمام امرأة سهلة، ثمة امرأة صالحة لقراءة واحدة كتلك الجريدة التي ينتهي بها المطاف غلافاً للساندويتش، وأخرى كالكتاب الثمين لا تمل من قراءته، كلما قرأت اكتشفت شيئاً جديداً، ونلت معرفة، وزاد حرصك على الاحتفاظ به في خزانة سويداء القلب.

تركتني في ساحة الكنيسة كما فعلتُ معها في المسجد وولَجَتْ إلى الداخل، توقفت أصوات الهاتفين وخرج الناس من الكنيسة، لكنها ظلت في الداخل تتناقش مع أحد القساوسة، كان صوتها يعلو، فأخشى أن يكون أصابها مكروهٌ فأطل برأسي من خلف الباب وحين تُصوَبُ عيون من تبقى نحوي أعود إلى الساحة، تاقت نفسي لمعرفة ما بداخل الكنيسة وما يدور هناك، لكن "غاردينيا" ظهرت أمام الباب واتجهت نحوي، عيناها حمامتان اغتسلتا بالأسى لكنهما تركضان وراء فرحٍ ما، تتأملني بصمتٍ وقد انعقدت سحابة تَبَرُمٍ بين عينيها، سألتها مدفوعاً بتوجس: ما الأمر..؟.. قالت وهي تمسح الحزن عن خديها:

- رفض القس إجراء عقد الزواج بحجة منع المسيحي من الزواج

دينياً بمن ينتمي إلى دينٍ آخر، لكنني أقنعته، وهددته برفع دعوى قضائية إذا لم يوافق على إجراءات عقد زواجنا، فوافق، أو لعله وافق كونه يريدني في مهمة أُمليت عليه مسبقاً..!

- مهمة..!

- لا عليك من هذا، المهم أنه وافق.

- إذن، لماذا كل هذا الحزن البادي على وجهك؟

- هناك مشكلة أخرى، يريدون منك أن توقع تعهداً أن يكون الأبناء على ديانتي.

- هذا مستحيل ..!!

- رفضت ذلك أيضاً، عرضت عليهم أن نترك للأطفال حرية اختيار الدين الذي يرونه مناسباً، وقد طلبوا مني الانتظار حتى يتناقشوا فيما بينهم.

- أشعر كأن كل شيء يقف ضدنا، قوانين الكنيسة، منطق الأديان، عيون الوشاة، لكنني على يقينٍ بأن كل هذه المعوقات تنتهي حيث يبدأ الحب.

- ليس ثمة قوة بمقدورها الوقوف في وجهنا، صدقني.

***

أخذ القس يصلي ويدعو ومن تبقى حوله يرددون الدعاء معه: "أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك ليأتي ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم، واغفر لنا خطايانا؛ لأننا نحن أيضاً نغفر لكل من يذنب إلينا، ولا تُدخِلنا في تجربةٍ لكن نجنا من الشرير؛ لأن لك المُلك والقدرة والمجد إلى أبد الدهور".

حتى إذا ما أخذ الجمع النشيج صار صوته متأججاً يقول: يا أبناء الله، يا أحباء يسوع الحي، إن ابنتكم هذه جاءت إليكم طالبة منكم الإذن لها بالزواج من رجل "غير معمد"، على غير ملتنا، وليس لها من الأمر إلا ما ترون.. وبعد هنيهة من ذهولٍ كان كل واحد منا ينظر إلى الآخر بصمت، نادوا علينا من الداخل، وقفنا بين يدي القس الذي بادرني بالحديث: هل تريد برضاك واختيارك أن تتّخذ الآنسة "غاردينيا" زوجة لك؟.. أجبته: نعم، والتفتُ أتأمل البناء الضخم والفن المعماري داخل الكنيسة الذي يمثل مزيجاً بين القديم والحديث، وقد بدت مستطيلة بحوافٍ دائريةٍ كرمز لسفينة النجاة، يعلو السطح قباب على هيئة رؤوس وضعت عليها الصلبان، وتحتها شكلٌ هلالي، الأمر الذي جعلني أنسى ما جئت من أجله وأحلق بخيالي بعيداً، ترى لماذا يضعون الهلال أسفل الصليب؟! أهو فعلاً رمز للانتصار الصليبي على المسلمين

كما يقول البعض أم أن الهلال من الرموز الرسمية لبيزنطة قبل الغزوات العثمانية، وأنه في الأيقونات الروسية القديمة والأثواب يشير إلى القمر كرمزٍ للخلاص، كما قرأت..؟! صمت القس وترك العنان لخيالي حتى إذا ما عدت بناظري إليه توكأ بالصليب الذي بيده ونزل من المنصة، تحرك خطوتين نحونا ثم قال: "الآن قد حضرتما في هذه الساعة المباركة قدام هيكل الرب وأمام مذبحة القدس، بحضور هؤلاء الشهود. وأشار إلى الموجودين .جمعتكما هذه الزيجة المباركة؛ فيجب أن يعرف بعضكما حق بعض، ويخضع كل منكما لصاحبه"، ثم أخذ بيد "غاردينيا" اليمنى وسلمها إلى يدي اليمنى وغطاهما بلفافة بيضاء، وأخذ رأسينا وقربهما من بعض كرمز للارتباط والاقتران لدى المسيحيين.. ثم نظر إليَّ قائلاً: يجب عليك أن تتسلم زوجتك في هذه الساعة المباركة بنيةٍ خالصة ونفسٍ طاهرةٍ وقلب سليم، وتجتهد فيما يعود لصالحها، وتكون حنوناً عليها، وتسرع إلى ما يسر قلبها.. ثم توجه إليها قائلاً: وأنتِ أيتها الابنة المباركة العروس السعيدة، يجب عليك أن تكرميه وتهابيه، ولا تخالفي رأيه، بل زيدي في طاعته على ما أوصى به أضعافاً، ثم ختمها بقوله "بخرستوس بينوتى". و"أبانا الذي في السموات". وأعطى التسريح: "امضوا بسلام. سلام الرب فليكن معكما".

تقدم أشخاصٌ يرتدون ثياباً موحدة أمامنا وعلى أنغام الزفة ولحن "شيري ماريا" سرنا إلى باب الكنيسة حيث كان أهل وأصدقاء "غاردينيا" يقفون في الساحة في انتظارنا، قدموا لنا التهاني والهدايا ثم تركونا نمضي نحو شقتنا بسلام.

❊ ❊ ❊

هاتفت "محسن" وأنا في طريقي إلى الشقة، أردت مفاجأته بالحدث الذي ينتظره من سنين، ظننت أنه لا يعلم بموعد زواجي؛ كوني لم أرتب له مسبقاً، أخبرته أنني أخيراً سأشرب نخب السعادة، وأنفض غبار الأسى عن ردائي، غير أن ضحكته التي صاحبت تهنئته لي- بما وصفها بالمفاجأة السعيدة- أكدت لي أن زواجي لم يعد سراً.

عدت إلى "غاردينيا" مندهشاً أتأمل الحمرة الخجولة في خديها، وهي تحاكي شقائق النعمان، وموجة السحر الهادئة التي تسير نحو شفاهها محملة بالمرجان، أذهلتني، وهي تذوب كشمعة نسكٍ في محراب العذراء، وتضيء كوجه يسوع المصلوب على مرآة الماء، كانت منتشية فرحاً، تسألني في كل لحظة: هل لا زالت الشقة بعيدة..؟

ما أجمل أن تصبح في متناول كائنٍ ملائكي يعيد ضبط حياتك من

جديد بعد أن كنتَ بحاجة إلى إعادة ضبط المصنع؛ كون ملفات أجهزة حياتك مفيرسة بالإحباط وغير قابلة لمكافح الفيروسات، حقاً أنت بحاجة لمن يعيد ترتيب ملفاتك بما يليق بلحظات الجمال التي تعيشها؛ لتكون ما تريد وتمارس حياتك كما تشتهي.!

ما إن نزلنا من "التاكسي"، وبدأنا نسير نحو باب العمارة حتى رأينا الورد ينهال علينا من الشرفات والبخور ينبعث من زوايا سلم العمارة كمن يمد يديه لمصافحتنا، أما هدير الزغاريد الذي تخلل صوت "منى علي" وهي تغني: "ساعة الرحمن ذلحين والشياطين غافلين، ألف ياسين ألف ياسين من عيون الحاسدين"، وقد صدحت به الحناجر التي أسمعها ولا أراها؛ لف روحينا وأخذنا إلى آفاقٍ بعيدة حيث البهجة والفرح، كنتُ مثقلاً بغبار الغربة والوحدة، لم أكن لأدرك أن "محسناً" أعد مسبقاً لاندلاع هذا الكرنفال البهيج الذي أسعد "غاردينيا" بحق.

أخيراً دلفتُ و"غاردينيا" إلى شقتي وأغلقت خلفي الباب، أوصلتها إلى الأريكة التي في الصالة، وبقيت أتأمل في عينيها غير مصدق أنها باتت في متناول روحي. يا إلهي، ما الذي حدث في هذا اليوم؟! أكاد لا أصدق، أخشى أن يكون حلماً، أتذكر أن ثمة من يقول: "إن الجبال وحدها لا تلتقي، لأدرك اليوم أنها تلتقي فعلاً، وأن ذلك لا يحدث

بسهولة، يجب أن يحدث زلزالٌ عظيمٌ؛ كي تتحول إلى ترابٍ واحد، لقد حدثت هزة عاطفية عنيفة بمقياس رختر الحب أدت إلى توحد روحينا"، لطالما كنت على ثقة أن بإمكان قلبين أن يصنعا إعجازاً فشلت أمم وجماعات مختلفة عن تحقيقه. أن ينهزم القساوسة ورجال الدين أمام إرادة عاشقين أصرا على كسر كل الحواجز التي تمنع ارتباطهما فذلك انتصارٌ حقيقيٌّ أرادت السماء أن تقول "لا" لمن يعتقدون أنهم يحكمون الأرض باسمها..!

كنت مستعداً لأن أبقى جالساً إلى جوارها لا أرتجي شيئاً سوى لهفة القبلة الأولى، أعشق ذلك التبذير الجميل في إثارة العيون، بي ولعٌ كبير لهذا الهدر الجنوني، كنت قبله رجلاً طاعناً في الحرمان، عينا "غاردينيا" تمثلان مدخلاً أنثوياً باذخ الاغراء، إنهما تشيان برغبتها الخجولة، أمسكت بمعصمها محاولاً إيقافها، غير أنها بقيت تتأملني بصمتٍ مدججٍ باللهفة، مددت يدي وأمسكت كفيها فإذا بنانها "غصونٌ لها درٌّ البحار ثمارُ"، قبّلت تلك الغصون وتناولت بعض فاكهتها على عجل ثم رفعتها إليَّ، كنت أودُّ أن أراها واقفة، حين استدارت لكي تنهض لمس فستانها كأس العصير الذي وضعته زوجة "محسن" وسط مجموعة من الحلويات والتورتة في الطاولة أمام الكنبة فسقط أرضاً وانكسر، ابتسمت

"غاردينيا" ابتسامة أرجوانية تتواءم تواؤماً أنيقاً مع حمرة الشفاه التي تضعها، يقولون: إن اللون الأرجواني هو لون الأنثى الواثقة من جمالها والتي لا تحتاج إلى من يذكرها بمدى جمالها، كما أنها صاحبة شخصية قوية، يبدو ذلك حقاً، فهي لم تأبه لذلك الصوت الذي أصدره كأس العصير عند ارتطامه بالبلاط، بل أخذت تفك ربطة عنق اللحظة، وتترك قميصي مشرعاً لرياح أشواقها قائلة: لم أكن أتوقع أن المسلمين بهذه الرقة والرومانسية، كنت أراهم أصحاب حروب وغزوات وتفجيرات.

أخذتها في حضني وذهبت نحو غرفة النوم قائلاً: سأريك الفتوحات والمعارك الإسلامية التي لم تسمعي عنها من قبل، كنت حينها كمن امتلك العالم بأسره، بل أناي العالم كله، وهي قبس من النار المقدسة التي انبثقت من كنيسة القيامة، أطفأنا المصابيح، واستلقينا على ظهرينا ناظرين إلى السقف حيث رأينا وميضاً من ضوء وظل، نظرت إليها نظرة تساؤل، فقالت: إنه ضوء المسيح جاء ليعمد زواجنا، تركتني مستلقياً على السرير ونهضَتْ، كنت أراها تستحم بالضوء وبياض عينيها يلمع فتنفتح نوافذ روحي.. حين عادت أمسكت بخصرها وقربتها مني، تركت شفاهي تطبع في جبينها قبلتي الأولى، القبلة التي لم تسأل عن دينها ولا عن ديني، بل أزالت كل الحواجز التي كانت بيننا وأزالت معها

كل مخاوفي من أجساد النصارى التي تفوح منها روائحُ كريهة كما كنت أسمع، لم أكن أتوقع أنني سألامس جسداً أزهرت خمائله، وافتر ثغر حديقته عن زهورٍ تهتز جذلى، وليلك خجول وياسمين فواح كهذا، لقد أسكرني أريجها فغبت عن العالم وغابت معي.

* * *

تركني "محسن" أخوض معارك الحب شهراً كاملاً دون منغص، معارك الحب ليست خاسرة كما يقولون، أتحدث عن الحب في الوقت الذي يتحدث البعض عن قطع الرؤوس، والأوصال، والتدمير، والأشلاء باسم الدين، لقد انتصرت بـ"غاردينيا" على حظي البائس وثقافتهم العاثرة، كان يخيل إليَّ خلال هذه الفترة أنني نبيٌّ بعث إلى قومه، وأنني في طور إشهار الدعوة، بينما لم تكف "غاردينيا" عن توجيه الأسئلة إلي، سألتني عن كل شيء رأتني أعمله، سألتني عن الوضوء، والصلاة، والتسبيح، والقرآن، والأمانة، والمحرمات.. ورغم عدم قناعتها بما أقوله وأعمله لا تكف عن توجيه الأسئلة، تريد أن تعرف كل شيء عن الإسلام.

عدت إلى العمل بنشاطٍ غير مسبوق، خجلت من طلباتي التي شعرت أنها - حتماً - قد أرهقت "محسناً"، كل نفقاتي وإيجار الشقة

وتحـويلاتي المـاليـة إلى الـيمن اقترضـتها منـه، لا أعلـم كـم سـأحتاج مـن الوقت لتسديدها، الأمر الذي جعلني أكتفي بشهر عسلٍ واحد، رغم أني بحاجة لسنوات علَّني أروي ظمأ قلبي العاطش، أخذني "محسن" بعيداً عن العمال وعرض عليَّ أن أشتري منه ثلث "الدكان" بمائتي ألف دولار، قال لي: إن بقائي كعاملٍ براتبٍ ثابت لن يجدي نفعاً الآن وقد بات لي زوجة، وربما أولاد في قادم الأيام، وإيجارات، وتحويلات إلى اليمن، قلت له: ليس بمقدوري أن أسدد ديوني السابقة فمن أين لي بهذا المبلغ الكبير؟ نظر إلي نظرة إشفاق قائلاً: "تلحلح يا شيخ، وخرِّج زلط من هانا وإلا من هانا.. هههههه، المهم ما عليك، امسك الدكان، وسددتني من أرباحك بالتقسيط".

طلب مني أن أوقع -بحضور ثلاثة شهود- على اتفاقية أعدها مسبقاً تضمن لي الشراكة، وفي ذات الوقت تضمن له قيمتها التي سوف أسددها بالتقسيط نهاية كل شهر، اعتاد هذا الرجل على الانضباط في كل شيء، لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا عمل لها ألف حساب، لذلك تراه خالياً من المشاكل التي غرق الآخرون فيها حتى أخمص أوجاعهم، أما أنا فقد كنت بعد زواجي أقضي وقتي مثل: عقرب الساعة حصيفاً، ملتزماً، مجتهداً، منضبطاً من الرابعة صباحاً وحتى الرابعة عصراً، أدير

الدكان، وبذات القدر أخوض حرباً ضارية مع نفسي، أود أن أكون ذلك الشخص المؤثر الذي حلمت أن أكونه منذ طفولتي، لا يمكن للمال أن يصرفني عن أداء رسالتي الدعوية التي لا شك أنها تبدأ من منزلي.

فرحت "غاردينيا" حين حدثتها عن امتلاكي لثلث دكان، قائلة:

- كنت بدأت التفكير في العودة إلى العمل كيما أساعدك في إيجار الشقة ومصاريف البيت، لكن مادامت أمورك المادية قد تحسنت، يجب أن تبحث لي عن مدرسة قريبة لتعيلم اللغة العربية، يُمتعني حديثك مع الآخرين بالعربية، لكني لا أعي ما تقوله.

- لقد أخبرني "محسن" ذات يوم بأن ابنته "صابرين" حين أكملت الثانوية العامة أدخلها مدرسة لتعلم اللغة العربية حتى لا تفقد لغتها الأم، لماذا لا تصعدين إلى شقة "محسن" وتسألي ابنته عن المدرسة؟! وتعرضي عليها مساعدتك للدراسة فيها.

- كانت اليوم هنا، وتحدثنا عن الموضوع، لكنني أردت أن تختار لي أنت المدرسة التي تراها مناسبة.

- ليس هناك أفضل من هذه المدرسة، منها ستتعلمين اللغة، ومنها تكونين برفقة ابنة "محسن"؛ لتحتكي بواحدة تشبهني في عاداتي وتقاليدي.

- ليس ثمة من يشبهك في هذا الكون سوى ظل تلك النخلة التي تساقطت رطباً جنياً؛ لتعين الشفيعة المؤتمنة في مخاضها الذي أهدانا الضوء المقدس.

- شكراً لعذوبة روحك.. قولي لي، هل تريدين أن آخذك إليها الآن..؟

- لا، سأذهب مع "صابرين" غداً.

***

كانت "غاردينيا" قد صارحتني أن الوشاية التي لا تنفك تطاردني قد وجدت طريقها إلى عقلها، وأنها تخشى أن يكون زواجي منها –فقط– من أجل الحصول على الإقامة، وأنها لن تبدأ بإجراءات المعاملة حتى تتأكد من أنني فعلاً تزوجتها لذاتها وليس للمصلحة كما يفعل غالبية المهاجرين، فأكدت لها أن ثمة رابطاً روحياً هو الذي يربطني بها، وأنها بالنسبة لي أغلى من كنوز الدنيا، وبإمكانها التأكد من ذلك بالطريقة التي تراها صحيحة.

واصلنا العيش معاً، أذهب إلى عملي نهاراً، وأعود إليها في المساء، ما تزال تراقب صلواتي وتصرفاتي بصمتٍ، حتى الطفل الأول الذي

أنجبناه تركته كما اتفقنا عند زواجنا يختار ما يريد، ما زلت أذكر أنه في عامه الثاني، وعند عودتي إلى البيت ذات مساء وجدته يمد السجادة ليصلي كما رآني أصلي، فنظرت إليها نظرة استفهام؛ فتجلت على وجهها آيات الغرابة فوق ما كان عليه من أمارات الدهشة، لكنها أومأت برأسها أن لا مشكلة، شعرت حينها كأني بطل تنس فاز للتو ببطولة ويمبلدون لأول مرة.

اعتدت حين أعود إلى المنزل أن ألقي نظرة على مكتبتي، كنت في كل مرة أجد كتاباً قد تحرك من مكانه، غالباً ما يكون القرآن أو كتاباً فقهياً، لم تكن "غاردينيا" لتفعل ذلك أمامي، هي بالتأكيد تستغل غيابي فتلتهم كل ما تجده أمامها من كتب، كنت أشعر بذلك من خلال عمق نقاشاتها وأسئلتها التي لا تنتهي، كان ذلك يسعدني، فأقتني المزيد من الكتب؛ لأمنحها المساحة الكافية للتحليق في أفق واقعٍ جديد راهنت على أن أجعله مختلفاً.

***

مرت سنة أخرى وأنا ما زلت أعيش معنى البداية، البداية الأولى للدهشة والإثارة، الشعور الذي لم أكن أدرك أنني أمتلكه، النبض الذي اختبرت به مشاعري، الحُضن الذي أخذني إلى أقاصي الوله.. أشعر بحاجتي الدائمة للبداية علني أتخلص من مواجع الماضي.. يقولون: إن

جمال البدايات يخبو مع تقادم السنين، غير أن سحر بداياتي ما يزال يومض فأشعر كأنني أعيد اكتشاف نفسي متجاوزاً رصيد الانتكاسات التي تسحب وجودها من شريط الذاكرة بصمت.

سددت "محسن" قيمة ثلث الدكان، وبدأت أشق طريقي بثبات منقطع النظير، لقد عثرت مؤخراً على عمارة مكونة من ثلاثة طوابق في جزيرة "استيتن آيلاند" في منطقة مزدحمة بالسكان، أغراني موقعها المميز، إذ إن دورها الأول ينفع ليكون "سوبر ماركت" أو مطعماً أو لأي نشاطٍ تجاري آخر، حادثت "محسناً" ذات صباح والندى يلتمع على العشب كحبيبات من البلور، عرضت عليه مشاركتي في المشروع الجديد، فطلب مني أن نذهب سوياً ليرى العمارة وموقعها، حين وصلنا إلى هناك قال لي: على بركة الله أنت ما زلت نشيطاً، وأنا ما عدت قادراً على توسعة أعمالي، اشترِ العمارة لنفسك، وافتح في دورها الأول هاردوير (محل للأجهزة والمعدات) سيكون مربحا بالفعل، فالمنطقة كما ترى ليس فيها محلٌّ مماثلٌ.. هزمت ارتجاف خطواتي، وعملت بنصيحته، واشتريت العمارة، وجهزت المحل، وما إن مرت فترة قصيرة من افتتاح المشروع حتى وجدتني أجني أرباحاً طائلة.

* * *

ازداد رأس مالي، وفُتِحَت لي أبوابٌ عديدة للاستثمار، غير أني لم أعد أفكر بشيء سوى العودة إلى اليمن، خصوصاً بعد حصولي على الجنسية الأميركية، أود رؤية أمي وأبي، أشعر بأنفاسي تتهالك حين أحصي سنواتي التي قضيتها بعيداً عنهما، أخشى أن أفقد أحدهما أو كليهما، وأنا في هذا البلد الذي لا يرحم، حتى زوجتي الأولى كثيراً ما تقول لي ذلك، هي أيضاً تحتاجني، أشعر بذلك من خلال حشرجات رغبتها يانعة الصمت، يؤلمني أنين أعماقها ومرارة لوعتها، خصوصاً حين ترتدي الخجل لتخفيهما، صحيح أن الحب الحقيقي ورهبته وقداسته وخشوعه يجعلك تنسى ماضيك وسنوات الجفاف التي عشتها خالياً من المشاعر والرومانسية إلا أن للمودة والرحمة شأناً آخر، لا تستطيع تجاوزهما حتى وإن كان قلبك ينبض في جسد إنسان آخر، فالشمس وإن غربت لابد أن تشرق من جديد، وطائر "الفينيق" وإن احترق فاحتراقه من أجل أن يتجدد ويولد من جديد.

أخذت مفتاح سيارتي، أدرت المحرك وانطلقت إلى غير وجهة، لم أنحنِ شمالاً ولا يميناً، سرتُ بشكلٍ مستقيم حتى انتهى بي المطاف إلى خارج "نيويورك"، توقفت في منطقة مليئة بالأشجار، وبدأت أفكر ما العمل..!!

أخذت وقتاً طويلاً حتى انتهيت إلى أن أتصل بـ "غاردينيا" وأخبرها برغبتي في السفر، كنت أخشى مواجهتها؛ ولذلك كان خيار الحديث عبر الهاتف هو الأفضل.

:سترفض حتماً، قلت، وأنا أغلق الهاتف قبل أن أضغط على زر الاتصال، ترددت أكثر من مرة لكنني أخيراً هاتفتها، بدأت أحدثها عن والدي ووالدتي وأبنائي وسنوات غيابي عنهم، وأني بدأت أفقد اهتمامي بالشغل وبالحياة بشكل عام نتيجة تفكيري بالسفر ورؤية أهلي، ثم إن الله يأمرنا في كتابه الكريم ببر الوالدين، وألاَّ نقول لهما أفٍ ولا ننهرهما، وأن نقول لهما قولاً كريما، ونخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقد طلبا مني السفر ليرياني قبل موتهما، وديننا الإسلامي يقول: إن رضى الله من رضى الوالدين.. كانت تصغي إليَّ بدقة متناهية كأنها تتحسس الأشياء التي أتحدث عنها وتلامسها، طفق الخوف يتسرب ببطء إلى قلبي، أخشى أن يكون صمتها مقدمة لرفض فكرة سفري التي باتت ضرورة ملحة، غير أنها فاجأتني بعد صمتها الطويل بالموافقة ثم طلبت مني إغلاق الهاتف حتى ترد على من يطرق الباب، تنفست الصعداء وبدأت الفرحة تدب في أوصالي والطمأنينة تنبثق في روحي، أزحت مقعد السيارة إلى الوراء قليلاً ثم أرخيت جسدي المتعب عليه، لكنني كمن

توكأ على جدار آيل للسقوط ما لبث أن وجد نفسه بين الركام، لم تكد تمضي سوى دقائق معدودة حتى عاودت الاتصال طالبة مني أن آخذها معي إلى اليمن، حاولت أن أشرح لها الأسباب التي تحول دون ذلك؛ فترجتني أن أترك النقاش حول هذا الموضوع إلى حين عودتي إلى البيت.

شعرت بالخيبة والانكسار، أخشى أن تصر على مرافقتي في السفر، أو أن يشعل هذا الموضوع فتيل الخلافات بيننا، رحت أفكر وأجمع أشتات نفسي المكسورة، أحاول ما استطعت أن أحيك مبرراً يقنعها بصعوبة السفر إلى اليمن، كنت كلما انتهيت من فكرة سقطت مسربلةً بركاكتها والأرض تبلعها.. مسحت سيل العرق الذي تدفق من جبيني، وأعدت مقعد السيارة إلى وضعه الأول، جلت ببصري في المكان مدهوشاً، الليل يفرد جناحيه كطائر "الرُّخ" العملاق، وقهقهات العشاق تحرق ريش انكساري، ثمة مشاجرات تنبعث من الجهة المقابلة وصرخات مراهقين أعادت إلى ذهني مقولة "أجاثا كرستي": إنّ العشاق يتخاصمون دائماً؛ لأنهم لا يفهمون بعضهم البعض، وما إن يأتي الوقت الذي يفهمون فيه بعضهم بعضاً حتّى يكون الحب قد انتهى!.

حين ركنت سيارتي لم يكن هنالك أحد، يبدو أنني في منطقة خاصة بالعشاق، العشاق الذين ترتعش وجدانياتهم وتتوهج مشاعرهم حين

يهطل الليل، أدرت محرك سيارتي، وتركت المكان، توجهت نحو وسط المدينة، قلت: سأذهب؛ لأتفقد العمل ثم أعود إلى منزلي، أمامي مقابلة هي الأصعب منذ تزوجت "غاردينيا" لا يمكنني تأجيلها، بل المقابلة ذاتها لا تحتمل التأجيل، يجب أن أحسم أمر سفري بأي وسيلة، كنت أجوب الشوارع تائهاً كمن فقد ذاكرته، حتى الخريطة التي أسير عليها فَقَدَتْ تركيزها هي الأخرى لم تعد قادرة على التعاون معي، تاهت عن العنوان الذي طلبت منها أن توصلني إليه أكثر من مرة، بدت لي الشوارع مختلفة عن تلك التي أعرفها، كانت السماء تقذف زخات صغيرة على زجاج سيارتي، وكنت أحصي كلماتي التي سأقولها لـ"غاردينيا"، حاولت البحث عن اللافتات المعلقة على الشوارع؛ لأستدل بها على الطريق الذي يؤدي إلى "بروكلين"، غير أني كنت كلما أنجح في الوصول إلى "الهاي وي"، أي الخط السريع الذي يؤدي إلى منطقتي، أجد نفسي إما قد تجاوزت المخرج الذي يؤدي إليها أو انحنيت قبل الوصول إليه نتيجة الإرهاق الذهني الكبير الذي أصابني، لم أزل على هذا الحال حتى لفني السأم وبلغ بي الضجر مبلغه، فتوقفت إلى جانب الطريق، حاولت أن أستنجد بخيالي، علّه يُسعفني بسلوى أو شيء من هناءة بالٍ أو دعةٍ تعيد ترتيب روحي المنهكة، دون جدوى، أخذت هاتفي واتصلت بأمي، قلت ربما يساعدني سماع صوتها المليء

بالحنان والدفء والأمل على التخلص من الضجر الذي علق بي، هي الأخرى لم تدعني أحدثها، بل بادرت بالقول: "متى تجي يا "محمد" اشتيني القيك قبلما أموت"؛ لتزيدني وجعاً وضجراً فوق ما أنا عليه، شعرت بانقباضٍ شديدٍ، وكأن صخرةً صماءَ تجثمُ على صدري، ازداد خفقان قلبي، وتمدد الصمت في مساحات حنجرتي، الدموع مكبلة في داخلي أسمعها حين تتدحرج؛ لتقف في مفترق أنفاسي.. تذكرت حينها حجم المعاناة التي لاقتها والدتي من أبي وصبرها عليه خلال السنين الماضية حين كان ما يزال قوياً فكيف به اليوم وقد بات كهلاً لا يغادر البيت إلا ما ندر.. تذكرت عبارات الشوق والحنين التي تقولها لي كلما هاتفتها.. لا شيء يساوي رضا الوالدين، أخشى أن أكون عاقاً نتيجة غيابي عنهما كل هذا الزمن الطويل دون أن أعتني بهما عن قرب وأقبل قدميهما، هما الجنة التي وهبها الله لي على هذه الأرض، وفراق أحدهما أو كليهما يعني أن تتحول حياتي إلى مساحة كبيرة من الجحيم الذي لا ينتهي، يُداهمني إحساسٌ قاسٍ بأنهما يُجدّفان بمجدافين قديمين وقارب متهالك سيهوي بهما إلى القاع في أي لحظة، يعتريني جزعٌ شديدٌ، فلماذا لا ألحق نفسي قبل فوات الأوان؟.

* * *

كنت مهموماً ومجهداً وقلبي لا يفتأ يعوي ككلاب حراسة القات، لكني نفضت عني اليأس وتمكنت من التقاط بعض أنفاسي وتوازني؛ فقدت سيارتي بعد ضبط العنوان على خريطة الهاتف بشكل دقيق، مصغياً للصوت الذي يدلني على الاتجاهات، لم أخشَ اصطدامي بسيارة عن يميني أو شمالي وإنما خشيت أن يعاود التشويش الذهني هجومه عليَّ؛ فأظل أسير في دائرة مفرغة كما فعلت سابقاً، غير أني هذه المرة تمكنت من الاستجابة للمرشد الصوتي، وتنفيذ أوامره بدقه حتى وصلت منزلي، كان الوقت متأخراً إلا أن "غاردينيا" كانت في انتظاري، تأبَطَتْ ذراعي حين دخلت من الباب حتى بلغنا الأريكة التي في الصالة، ثم نهضت لإحضار العشاء، كانت تسير على بساط من شغف فرشته بنظرتي المأخوذة بحضورها الاستثنائي، هي بالفعل استثنائية في كل شيء: حديثها.. صمتها.. عاطفتها.. حتى خصامها.. توسلتني والدفء يربض في أرضية عينيها أن أصطحبها معي إلى اليمن، قالت ذلك بصوت هادئ ولطيف على غير ما توقعت، الأمر الذي عمل على إعادة توجيه انتباهي وتهدئة أنفاسي المبعثرة.

كانت قد وضعت على جدار الصالة صورتين واحدة لمسجد قبة الصخرة والأخرى لبيت الله الحرام، حين رأتني أتأملهما قالت: ألا ترى

ذلك الضوء الذي ينبعث من القبة الذهبية، صاعداً بشكلٍ منحنٍ، أثمة علاقة بينه وبين ضوء الصورة الأخرى؟! هل يلتقيان في مكان ما ليواصلا صعودهما إلى السماء؟.

- نعم، يبدو أنك قرأتِ عن مسرى النبي محمد صلى الله عليه وسلم فالتصق في ذهنك مسار الضوء الذي ربط بين مكة والقدس وسدرة المنتهى.

- وقرأتُ أيضاً أن بالقرب من قبة الصخرة تقع كنيسة القيامة التي شهد مكانها موت وصلب السيد المسيح وبعثه، وأن اليهود الذين يسعون إلى هدم الأقصى يسعون إلى هدم الكنيسة أيضاً؛ كونها تذكر الحجاج الذين يقصدونها للعزاء والفداء بمن قتل المسيح وصلبه.

- بالفعل هناك من يسعى لتعميق العداء والصراعات من خلال محاولات التهويد، وطمس المعالم الإسلامية والمسيحية، وفرض واقع جديد لا يقبل بالتسامح الديني والانتماء الإنساني لربٍّ واحد.

- ما رأيك الآن تأخذنا معك في سفريتك إلى اليمن، لا نستطيع البقاء هنا دونك، لكم أرغب بالتعرف على بلدك، وتقبيل رأس أمك والجلوس إلى أهلك.

- أنت تعلمين كم أحبك، ولا يمكن أن أرفض لك طلباً، ولكن الأوضاع في اليمن غير مستقرة، هناك ثورة قامت على الرئيس، والجيش منقسم، والشارع يغلي والجماعات المتطرفة خرجت من جحورها، والأمور تسير نحو الحرب الأهلية، ولا آمنُ عليكم هناك.

- كيف ستسافر إذن مادامت الأوضاع كما أسلفت؟!

- حين أكون لوحدي سأتدبر أمري، وأتمكن من التخفي للوصول إلى البيت، ثم إنني لن أمكث طويلاً، فقط سأرى أمي وأبي، وأجلس معهما لبعض الوقت ثم أعود.

- ألا ترغب بأن يروا أولادك؟! ستفرح أمك كثيراً حين تراهم!

- أرغب لكنني - حقاً- أخشى عليكم، ولست مستعداً للمجازفة في مثل هذه الظروف، سنسافر سوياً حين تنتهي الأزمة، أعدك بذلك.

- كما تشاء، ترافقك السلامة ويحفظك الرب، مباركاً طريقك ونوايا الأعمال الصالحة التي خططت لإنجازها والعودة.

* * *

كانت رقيقة كنسمة صباحٍ، وبسيطة كأنفاس الروح القدس، ملأت روحي منها ثم دلفت إلى غرفة النوم مطمئناً، وضعت رأسي على الوسادة

وملّيت العين حتى رأيتني نائماً على جنبي الأيمن فوق سريري، وحين انقلبت على جنبي الأيسر وجدتها من خلال ما أتاحه لي الضوء الخافت القادم من الصالة مستلقية على ظهرها بجواري دون لحافٍ، وقد أبقت جفنيها مفتوحين، وهي تحدق في سقف الغرفة، سمعت تنهيدة مثقلة بالوجع علّها تفتش عما يطفئ ظمأ فضولها لمعرفة سبب سفري المفاجئ قبل أن أشعر بلهيبٍ دافئٍ يلامس وجنتي، سحبتُ يدها واحتضنتها بلهفة، وأنا أتحسس نعومة قميص النوم الذي ترتديه، ثم تقاسمنا اللحاف واختبأنا تحته نلاحق شهقات الوداع ونجفف نحيبه.

❋ ❋ ❋

شرع "الشيخ محمد" في ترتيب أعماله، وتسليم إدارة محلاته لمن يثق بهم من عماله، وتجهيز نفسه للسفر، كان سعيداً وهو يتأهب لمغادرة المدينة التي احتضنته ثماني سنوات، لقد حقق في هذا البلد ما لم يكن يحلم به مطلقاً، لقد ظل في مركزه الدعوي كل تلك السنين التي سلخها من عمره يلقي المحاضرات، ويزور الناس في الأرياف، لكنه لم يستطع التأثير إلا على بضعة طلاب، بينما تمكن هنا من التأثير على غالبية سكان المنطقة التي يقطن فيها وكذلك الكثير من زبائنه بطريقة جعلت العيون ترصده وتترصد مسارات أهم الشخصيات التي تأثرت به، منذ أن خرج

من السجن وهو يشكو أن ثمة شخصاً يراقبه ويتقصد أذيته، تارة عبر بلاغات كاذبة للشرطة وعبر لصوص يهاجمونه ويسطون على أمواله تارة أخرى، لكنه لم يكن يرغب في أن يُحدِّث من حوله بذلك، بل كانت شكواه تقتصر على أقرب المقربين إليه، خصوصا حينما زادت في الفترة الأخيرة، لكنه كان رغم توجسه مؤمناً بأن الشر زائل وأن البقاء للخير وحده.

كان قد استخار الله أكثر من مره في موضوع سفره إلى اليمن وفي كل مره تزداد عزيمته وتشتد قواه؛ لذلك أصر هذه المرة على السفر رغم الأخبار السيئة التي تأتي من هناك، لم يأبه للفوضى العارمة التي حلت بالبلد عقب ما سمي بثورة الشباب السلمية، ولا بالاغتيالات والتفجيرات التي باتت تتصدر أخبار وكالات الأنباء العالمية، كان مسكوناً بحب وطنه ومهووساً بالعودة إلى مسقط رأسه تحت أي ظرفٍ من الظروف، كانت الأخبار آنذاك تتحدث عن ترشيح "هادي" ليخلف "صالح" في رئاسة الجمهورية، فأمسك برأسه مردداً مقولة "ونستون تشرشل": "كل شعب في العالم ينال الحكومة التي يستحقها".

حادثه أبوه ذات مساءٍ موغلٍ بالنجوى فراح يصف مشاعره واشتياقه لليمن كمراهقٍ يتغزل بحبيبته التي أومأت له بكفها واختفت بين سيقان

الذرة، جثا على ركبتيه، وهو يبوح بمكنونات فؤاده، وسالت مدامعه المضمخة بالحنين، تركه أبوه يهرق ما تكوَّم بداخله من مشاعر نحو الوطن المكلوم الذي تهرسه الأزمات وتطحنه الحروب حتى إذا ما انتهى قال له: "شي قد معك بقش خيرات تجي تشتري لنا سيارة "مونيكا" مثل حق عيال عمُك فيصل وتبني لنا بيت سع الجن والا قدك عندك أحسن لك". ضحك من كلام والده ووعده بأن يوفر له كل ما في نفسه.

***

ما إن أنهى مكالمته مع والده حتى توجه إلى شركة الطيران، وطلب من الموظف أن يحجز له على أقرب رحلة إلى اليمن، كانت أقرب رحلة بعد عشرة أيام، أخذ تذكرة السفر وذهب إلى "ميسس"، كان سعيداً وهو يلج المركز التجاري الأضخم في مدينته، وكان أكثر سعادة أثناء اختيار الأشياء الثمينة كهدايا لعائلته.. اشترى لكل فرد من العائلة صغيراً كان أو كبيراً، لم يغادر المركز التجاري إلا بعد أن نفد كل ما لديه من نقود.

خرج من المركز التجاري كالممسوس، كان باذخ الفرح يصفق ويضحك بأعلى صوته، ويقول: أخيراً سأعود إلى اليمن، وسأقبل ترابه الطاهر، أخيراً سأحتضن أبي وأمي وأقبل أقدامهما، أخيراً سأروي ظمأ "سلمى" وسأعوضها عن سنين الحرمان التي عاشتها خلال فترة غيابي،

سأشتري لها حزام ذهب، وأشتري لهم فيلا في "إب" وأنقلهم جميعاً إليها، وأقيم زواجاً جماعياً لأبنائي، لن أتركهم حتى أوفر لهم كل وسائل الراحة والعيش الرغيد، لقد حققت كل ما كنت أحلم به، ويجب أن يكون خيري لأهلي.

لم يكن من عادته الغياب عن محلاته التجارية، لكنه بات يقضي وقته في زيارة أصدقائه ورفقاء المسجد وكل من تشارك معهم حلاوة ومرارة الحياة في هذا البلد وتوديعهم، مر في شارع "5th Ave,Brooklyn" حيث المطاعم والمحلات اليمنية، ترجل عن سيارته وسار على امتداد الشارع بروح مليئة بالحب، يصافح، ويحتضن كل من يراه، هو في الحقيقة يقوم بذلك مع كل معاريفه، هكذا يتحدثون عن فيض مشاعره تجاه الآخرين ونبل تعامله معهم، لكنه اليوم يصافح الناس بطريقة مختلفة كمن ينوي الرحيل دون عودة، كثيرون هم الناس الذين لا يعيرون الصداقات اهتماماً ولا يلتفتون إلى وشائج الود التي تربطهم بالآخر، وقليلون هم أولئك الذين يقدسون علاقاتهم بالآخرين وينحتون على جدرانها نوافذ للوفاء، سترى في خضم العواصف العاتية التي تحاصر يومياتك أن ثمة شخصاً يختلف اختلافاً كلياً عن جميع من حولك، بمقدوره من خلال نظرته الجميلة للحياة أن يدفعك إلى الإبحار بقارب أملٍ وسط أمواج الإحباط المتلاطمة؛ لتجد نفسك في الضوء تتحكم بمجاديف أقدارك.

إنها الحياة تتحين الفرصة؛ لتريك ما يحدث من حولك، لكأنها تود أن تجعلك تستشف المعنى الصحيح لكلمات المسيح القاسية: "ما جئت لألقي سلاماً، بل سيفاً".

ما إن ولج "الشيخ محمد" مطعم "الوحدة" حتى وجد على الطاولة القريبة من المحاسبة "محمود" ابن عمه "صالح" صاحب "ديترويت"، فذهب إليه والفرحة تغمر قلبه، قام باحتضانه والاحتفاء به بطريقة لم يكن يتوقعها، قال له وهو يربت على كتفه للجلوس على الكرسي وتناول الطعام معه:

- متى وصلت نيويورك؟! ولماذا لم تتصل بي، وتخبرني أنك هنا..؟

- "عادنا وصلت اليوم، وما عندي رقم تلفونك".

- طمني عليك، لست على ما يرام!.

- "خلها على الله، حصلت لي مشاكل كبيرة، لكن أنا قصرت معك عندما جيت عندنا، ما أشتي أوجع راسُك بمشاكلي".

- الله المستعان، مشاكلك هي مشاكلي، لا عليك من الماضي، أنا أخوك وسندك.

اطمأن محمود لكلام "الشيخ محمد" رغم حرجه الشديد من تقصيره

معه أثناء زيارته إلى "ديترويت"، وشرع يصف له مأساته المضرجة بالمواجع، وهو يمسك جدائل حزنه المتشظي على عتبات جبينه، غير أن الدموع التي تنساب من عينيه بغزارة أوقفت حديثه منذ الوهلة الأولى؛ فشعر "الشيخ محمد" أن خطباً جللاً وألماً مكبوتاً وجروحاً بليغة تحاصر الرجل؛ كون دموع الرجال عصية على الإفلات من محاجرها إلا في مثل هكذا مواقف؛ لذلك طلب من "محمود" تأجيل الحديث حتى يفرغا من تناول الطعام، ويخرجا من المطعم. تظاهر "الشيخ محمد" أنه يأكل لكنه في الحقيقة يفكر بعمق شديد، ويحاول الإجابة عن الأسئلة التي تتزاحم في عقله بصلف، وهي تبحث عن منفذٍ تخرج منه؛ لتجد مبتغاها في لسان ابن عمه الذي يجلس قبالته منكسراً على غير عادته، شحذ نفساً طويلا من صدره بعد ما عجز أن يجد جواباً واحداً ونهض متوجهاً نحو المحاسبة، ثم أخذ بيد "محمود" وذهبا إلى السيارة التي ركنها في بداية الشارع، بدأ "محمود" ينزف معاناته بينما ظل "الشيخ محمد" في حالة وجوم وصدمة كبيرة، لم يصدق أن صاحب "الهول سيل" و"المحطات" والمحلات التجارية والبنايات أصبح فقيراً بعد القبض عليه في قضايا تهرب ضريبي، ولعدم تسديده القروض البنكية، وتحويل أموال بطريقة غير قانونية؛ ليتم مصادرة كل ممتلكاته، لم تكن الحكومة وحدها من أعادته إلى الصفر، بل

إنه قبل فترة من القبض عليه كان قد شعر بخطر الأعمال التي أقدم عليها، فقام بتحويل جزء من ممتلكاته باسم زوجته وأبنائه؛ ليحميها من التأميم أو المصادرة في حال انكشف أمره، غير أن ضمائرهم انسلت من صدورهم بلا رجعة؛ لينقلبوا عليه، ويطلبوا له الشرطة، ويخرجوه من البيت، ويمنعوه من دخول ما تبقى من محلاته، بعد خلاف مع زوجته بسبب هروب إحدى بناته مع شاب "مكسيكي".. كان يسرد تفاصيل محنته بهدوء، لكن في صوته حشرجة مثقلة بالحزن، يمسح بكفه عيناً بكت على جهد السنين الذي ضاع بلمحة بصر، ويمسح بالكف الأخرى عيناً ترثي حاله البعيدة عن الله وعن والده، وضع "الشيخ محمد" كفيه على رأسه حزناً وكمداً، وهو يسمع المصائب التي لم تتوالَ على أحد كما توالت على "محمود"، تمنى في تلك اللحظة أن يتوقف عن الحديث لكنه كمن لم يتحدث منذ زمن استرسل يسرد تفاصيل حياة أبنائه واندماجهم في المجتمع الأمريكي، وتخليهم عن المبادئ والقيم الإسلامية والعادات والتقاليد اليمنية نتيجة لابتعاده عنهم وانشغاله بأعماله واللهاث خلف المال، الأمر الذي جعلهم يتخلون عنه ويصطفون إلى جانب والدتهم بمجرد أن ترنح وبدأ يفقد ثروته.

***

بالقرب من الجسد الواهن أخذ الحزن يتوعد اللحظة، وأشباح الموت جائعة تجول في الطرقات، والنشيج يمتد إلى عنان السماء، لرجع صداه عويلٌ يملأ الآفاق، ما يزال "الشيخ محمد" في طور الصدمة، لم يتجاوزها بعد، ولن يفعل!، تجاسر ووقف على أطراف قلبه محاولاً الخروج من قاع الصدمة إلى القبول بالظروف القاهرة التي تتزاحم أمام ناظريه.. سأل "محموداً" إن كان لديه أي مبالغ مالية يخفيها بأي مكان، أو يحتاج إلى محامٍ يساعده على استعادة ممتلكاته، فأجابه والحزن يلف وجهه، أنه لا يمتلك دولاراً واحداً وأن لا أحد من المحامين يستطيع أن يعيد له شيئاً؛ كونه سجل بإرادته ما تبقى من أملاكه بأسماء زوجته وأبنائه؛ فسطوا عليها بطريقة رسمية، لذلك صار يشعر بأسى متوحش، وبوجومٍ يجثم على صدره، وانقباضٍ يثقل كل أجزائه، والدنيا تضيق به كل يوم، ولأول مره منذ غادر اليمن يرى أباه في المنام بشكل يومي، بالإضافة إلى كوابيس مزعجة تحاصره من حينٍ إلى آخر، لقد أتى إلى هنا؛ ليبحث عن أحدٍ يقرضه قيمة تذكرة العودة إلى اليمن، ينتابه شعورٌ بقرب أجله، ولذلك لا يريد سوى أن يموت في حضن والده.

***

أدرك "الشيخ محمد" أن ما رواه "محمود" يعد نزراً يسيراً من

حكاياته الممتدة امتداد الوجع الذي يلف كلماته، لذلك ربت على كتفه، وطمأنه أنه سيوفر له كل ما يحتاجه، ولن يدعه يطلب من أحد، وأنهما سيذهبان للتو إلى شركة الطيران؛ ليحجز له مقعداً بذات الرحلة التي سيسافر عليها، وحين يعودان من اليمن سيقرضه المبلغ الذي سيحتاجه لمعاودة نشاطه التجاري، ويمنحه فرصة طويلة لتسديده دون فوائد.

لم يكن يتوقع أن الشخص الذي تخلى عنه ورفض مساعدته وتعالى عليه ذات زمنٍ سيقف إلى جانبه في الوقت الذي تخلى عنه الجميع، لذلك لم يتمالك نفسه، بكى بحرارة الأب الذي فقد أبناءه، ويكاد يفقد نفسه، غير أن "الشيخ محمد" اقترب منه وقبل رأسه، وأخذه في حضنه، ودس في جيبه مبلغاً من المال؛ كي يشتري له ثياباً وهدايا لوالده وأقاربه في اليمن، ثم عرض عليه أن يأخذه إلى منزله بعد الخروج من شركة الطيران.. أدار "محمود" الفكرة في رأسه عشرات المرات، هو في الحقيقة محتار بين أن يذهب معه أو يذهب إلى شقيقته، لكنه بعد أن أطرق قليلاً اعتذر بشدة؛ طالباً منه أن يوصله إلى "منهاتن" حيث تسكن شقيقته؛ لأنه يود أن يزورها، ويطمئن عليها، ويقيم عندها حتى موعد السفر علّه يرمم ما أفسدته سنين ضياعه.

* * *

كانت الشمس توشك أن تلقي بلهيبها في أعماق النهر الشرقي و"محمود" يتأملها بصمتٍ تاركاً لنفسه السقوط في السراء والضراء دون أدنى أمل، تنهد تنهيدة عميقة كأنها تبوح بما يختلج في داخله؛ ليقول وهو يمسح باطن كفه المندى بالعرق بثيابه: "المفروض يعملوا حماية لهذه المدينة، لو يجي مطر من حق اليمن بايفيض الماء وشلها كلها".

ضحك "الشيخ محمد" قائلاً: سمعت أنهم يعدون لمشروع اسمه "بيغ يو"، وهو عبارة عن جدار عازل سيحيط منهاتن السفلى؛ لحمايتها من الأمواج والأعاصير.. أنت ذكي يا "محمود" ولديك أفكار عظيمة ورؤية صائبة، لكنك للأسف لم تحتط لنفسك، ولم تدرك مآلات العبث الذي كنت تقترفه حتى وقع الفأس بالرأس كما يقولون. كانت كلماته كعود ثقابٍ ألقاه على وقود منساب، غير أن "محموداً" لم يعلق عليها، بل أخذ يتمعن بالأبراج العملاقة المتشابهة، تسلل ظل إحداها إلى داخله، الظل المتلاشي خلف المغيب وقد تعثر بها، فشعر بألمٍ شديد، كاد يبكي لولا أنه حبس دموعه هذه المرة، وتظاهر أنه منبهر بالشوارع والمدينة التي تغيرت ملامحها، حتى إذا ما برح الألم عاود حضوره بشدةٍ أكثر، كان "الشيخ محمد" قد توقف أمام العمارة التي تقطن فيها شقيقته، سلم عليه قبل أن ينزل من السيارة وطلب منه أن يعد نفسه للسفر، كان يحدثه

وهو يحني رأسه إلى الأرض خجلاً وألماً، مؤكداً أنه جاهزٌ، وسيراقب عقارب الساعة البطيئة وهي تسحب الدقائق واحدة تلو الأخرى حتى يحين موعد السفر؛ كونه يريد الفرار من هذا البلد؛ ليزيح الثقل عن صدره، ويدير ظهره لماضيه المؤلم.

***

انطلق "الشيخ محمد" عائداً إلى منزله، الطريق طويلٌ والأفكار تحتشد في مخيلته وتثقلها، جيوش الأشواق تنظم عرضاً عسكرياً مهيباً في صدره، والقرية تلوِّح له بذراعيها وقد توالت سفوحها أمام بصره بتدرجات لونية مدهشة تبدأ بالأخضر فالأبيض فالبنفسجي، ثم تصعد نحو الأفق كهيئة قوس قزح ترسمها مسارب طرقات الأغنام وموارد الماء التي تحيط بها وتنساب نحو الأودية.. كانت الأبراج قد توارت أمام عظمة تلك الصورة التي تقف بكبرياء أمام ناظريه، غير أن صوت إطارات السيارة التي كادت أن تصطدم به من الخلف أخرجته من حالة الشرود الذهني الجميل الذي عاشه للحظات إلى مشهدٍ أثار مشاعر الخوف في داخله، نظر إلى المرآة التي أمامه فإذا بسيارة يقودها شخصٌ ملثمٌ تقترب منه وتحاول معارضته وإيذاءه، أمسك بمقود السيارة بقوة وزاد من سرعتها، حاول الهروب منه، لكنه لم يستطع، تجاوزه وانعطف

إلى أمام سيارته بسرعةٍ ثم عاد إلى مساره، ضغط "الشيخ محمد" على مكابح السيارة بكلتا قدميه بقوة فانحرفت إلى جهة الشمال وكادت تصطدم بالرصيف، فترك المكابح ولف مقود السيارة قليلاً حتى عادت إلى مسارها السابق، لم يكد يتنفس الصعداء حتى عاود ذلك السائق الملثم معارضته والسير معه بشكلٍ موازٍ، ثم تجاوزه وسار بنفس مساره قليلاً؛ ليتوقف أمامه بشكل مفاجئ، إلا أنه كان مركزاً هذه المرة فلم يلمس مكابح السيارة حتى لا تنقلب به، بل لف المقود إلى اليمين وسار قليلاً في المسار المحاذي للرصيف حتى إذا ما كاد يصطدم بشاحنةٍ أمامه كانت تسير ببطء انعطف إلى خارج الشارع؛ ليتدحرج بين الأشجار الصغيرة لمسافة قصيرة قبل أن يتوقف على العشب الأخضر، نزل من سيارته مسرعاً ينظر بعينين مرعوبتين يميناً وشمالاً يفتش عن السيارة التي عارضته، فلم يجد أثراً لها، أخذ شهيقاً طويلاً، وأخرج من صدره زفيراً متعباً، جعله يدرك أن ثمة خطراً محدقاً يهدد سلامته، خالجته الرغبة في الصلاة علَّه ينفث عبرها فجائعه، ثم تذكر أنه على غير وضوء؛ فأغمض عينيه، ورفع يديه إلى محاذاة وجهه يتلو الفاتحة والمعوذتين، ويحمد الله على السلامة، ويدعوه أن يكفيه شر من يترصده، ظل في مناجاته حتى عادت السكينة إلى قلبه المضطرب؛ فأخرج الهاتف من

جيب معطفه وأراد الاتصال بالشرطة، لكنه سرعان ما ألغى المكالمة خشية أن يطول أمد التحقيق، ولا وقت لديه للأخذ والرد حول من يستهدفه، خصوصاً في ظل وجود شواهد سابقة كثيرة تشير إلى أن ثمة سلسلة طويلة من محاولات الأذية التي تعرض لها.

انتظر لبعض الوقت ثم عاد إلى سيارته وقبل أن يدير محركها ارتفع غرابٌ من بين الأشجار، وما لبث أن وقع على زجاج السيارة بعد أن خفق بجناحيه قليلاً، وأسرع راكضاً جهة الشمال نحو عمود الإنارة القريب ينتف ريشه ويطايره، غير أن "الشيخ محمد" لم يأبه لنذير الشؤم الذي بالتأكيد أراد أن يسجل حضوره المريب، بل قاد سيارته؛ ليخرجها من المكان الذي تدحرجت إليه متوجهاً صوب "بروكلين"، كان يسير حذراً يتلفت يمنة ويسرة خشية أن يعود ذلك الملثم لمهاجمته مرة أخرى، ما تزال الحيرة تعتريه، لا تهدأ حتى تثور، ولا تخمد حتى تشتعل، يتلظى بنيرانها كلما وضع أصابع الاتهام على شخصٍ ما؛ ليكتشف أن ذلك محض تخمين وليست حقيقة مؤكدة، مجرد شكوك تتزاحم في رأسه، يفتش لها عن منفذٍ إلى اليقين، تمنى آنئذ لو أنه بقي في القرية راعياً يقع عليه الليل فينام على هسيس سنابل الذرة، ويغرق في أحلام العناق، ويضيع القطيع خيرٌ من حالات الهلع التي يعيشها في هذا البلد.

كان يقود سيارته وقد بدا له كل شيءٍ غريبٍ: الشوارع، والبنايات، وأعمدة النور، وإشارات المرور، حتى الطريق ذاتها طالت أكثر من المعتاد، كل الأشياء تراءت له أنها تخفي خلفها ذلك العدو المجهول، دارت برأسه دوامات الأسئلة التي لا تنتهي فعاد إلى نفسه يسألها: ترى من هذا الذي أراد أذيتي؟! ولماذا يريد فعل ذلك..؟، أتراه اشتبه بي ولم يكن يقصدني.. أم أنه فعلاً جاء لأجلي..؟!

هل كان ينوي قتلي – حقاً- أم أنه فقط يود التلذذ بإخافتي..؟

توقف بالقرب من "ستار بوكس"، نزل من سيارته، واشترى قطعتي كيك وكأس قهوة، حاول أن يداري حالة الذعر التي تتملكه فتذكر، وهو يرى الموضة السائدة في ثياب النساء، حواراً دار بينه وشخص في السجن كان يدَّعي أنه فيلسوف، حول الخطيئة الأولى التي حدثت في السماء، وتفلت إبليس في بطن حواء المرأة الوحيدة بين نساء العالم التي لا سرة لها، مستغرباً من التفلسف في مثل هذه المسائل التي لا جدوى منها، لكنه في ذات الوقت كان سعيداً لانصراف تفكيره عن الحادث إلى مثل هذه الفلسفة التي يرونها عظيمة.

فرح كثيراً حين اقترب من جسر "بروكلين" وتنسم عبق نهر الشرق أثناء صعوده، غير أن فرحته لم تدم طويلاً، إذ ما لبث أن وصل منتصف

الجسر حتى عاود ذلك الملثم الظهور وبسيارة أخرى؛ ليداهمه الخوف والهلع خشية السقوط من أعلى الجسر، كان الملثم يسير بالقرب منه وبشكل متوازٍ، لكنه هذه المرة اكتفى بتوجيه الشتائم وإشارات التهديد وحسب، لعله خشي من كاميرات المراقبة أو من الشرطة التي تحرس الجسر.

تجاوزه "الشيح محمد" بعد خروجه من الجسر، وظل يراقبه بالمرآة الخلفية وهو يسير خلفه، كان مرعوباً يقلب كفه، عاجزاً عن إيجاد تفسيرٍ لما يحدث، استمرت المطاردة لعدة دقائق قبل أن يتمكن "الشيخ محمد" من الانحدار إلى شارعٍ فرعي وإيهامه أنه سيسير بشكل مستقيم، بينما أخفى سيارته داخل مرآب حتى إذا ما تأكد أنه أفلت من رقابته خرج من المرآب، وعاد إلى الشارع الرئيس مواصلاً طريقه إلى البيت.

* * *

وصل منزله متأخراً، كان متعباً وخائفاً، وفي رأسه تتصارع كل الأحداث، لا يدري ماذا يقول لزوجته ولا من أين يبدأ، الموت يحاصره من كل جانب، ما تزال يد ذلك الملثم الذي كان يشير بها إلى رقبته تتراءى له كأن سكيناً ستُغمَد في عنقه، لم يحدث زوجته بشيء، لا يود أن يقلقها، بات ليلته مهموماً على غير عادته، نظراته يائسة وخاوية من أي

تعبير، لم يداعب أبناءه، ولم يلتفت إلى "غاردينيا" التي تنتظر مفاجآته الرومانسية التي اعتادت عليها، أمست الهموم تسحقه كما تسحق قدم ديناصور بيضة عصفور سقطت عليها من علٍ.

نهض صباح اليوم التالي وكأن شيئاً لم يحدث، أزاح بلطف خصلة شعر منسدلة على خد "غاردينيا" التي أصرت أن تنام إلى جواره، وطبع قبلة خاطفة على جبينها، فاستيقظت باسمةً يشع وجهها الملائكي بالنور، جال بعينيه في ملامحها التي تزداد جمالاً، ثم طلب منها أن تواصل نومها ريثما يعود من قضاء بعض مشاغله، اعتصرت كفه بين يديها، ووجهت له نظرات تخفي الاشتياق المغموس بأهداب الحزن المنسي، تفحصته بصمتٍ وما بداخلها ينوء بالجوع والنهم لكل همسة غابت عنها ولم ترتوِ منها طوال ليلتها البائسة، ثم قبَّلت كفه وتمنت له السلامة.

لم يكد يصعد سيارته حتى رن هاتفه بمكالمة من أمه يقطر من كلماتها رجاءٌ فجَّر في صدره أخاديد الحنين إلى القرية وشعابها ووديانها.. إلى الأوكسجين النقي الذي تمنحه الأشجار للسكان كغسيل رئوي مجاني.. إلى الناس الذين يتدافعون خلف الأغنام بوجوهٍ مكتظة لامعة مدهونة بالسمن البلدي.. إلى الأزقة الضيقة ورائحة "الملوج" التي تفوح من "السقائف".. إلى الضوء المنزلق على سنابل الذرة.. قالت له وهي تعبر

له عن مدى فرحتها بقدومه: "انتبه على نفسُك قد تراءيتُك هذا الثمان مرتين".

***

أغلق الهاتف وبدأ تنفيذ برنامجه المزدحم بالمواعيد، يود أن ينجز كل أعماله المعلقة، موعد السفر يقترب، هناك بعض المعاملات في البنوك وأخرى مع الشركات، لا يمكن لغيره القيام بها؛ كونها تحتاج توقيعه، ولا يمكن أن يخول أحداً للقيام بها، وأيضاً لا بد من زيارة المحامي "كنت" في مكتبه، ما يزال كلامه الذي قاله في آخر مقابله عالقاً في ذهنه.

ترجل عن سيارته وجلس متهالكاً على مقعدٍ بالقرب من دارٍ للنشر، كانت مشاعره خليطاً من الشوق والترقب والخوف، أخرج من جيبه ورقةً وأراد أن يكتب عليها شيئاً، يود تدوين بعض الملاحظات المهمة، لكنه وجدها مليئة بالحسابات الخاصة بأحد محلاته فأعادها، وأخذ ورقة ملقية على الأرض، حين رفعها وجد عليها صورة لتمثال " فينوس" الذي يعتقد الرومان أنها آلهة الحب والجمال والخصوبة والنصر، ألهمته الصورة التي تُظهر أنثى غير مكتملة الذراعين يتدلى نهداها بصورة ساحرة وغامضة في آن، فحاول أن يكتب خلف الورقة رسالة عاطفية يضعها ليلة سفره تحت وسادة "غاردينيا"، غير أنه كان كلما انتهى من

جملة عاد ليشطبها ويكتب غيرها حتى وجد الورقة كلها ملطخة بالشطب فضرب كفه على طرف الكرسي الذي يجلس عليه حتى جرحها، وحين رأى الدم ينزف منها تذكر "همنجواي"، أهم روائي في عصره، كيف أنه أقدم على الانتحار حينما عجز عن الكتابة.

مرت فترة من الصمت المشوب بالحيرة قبل أن يمر بجانبه شخص يبدو من ملامحه أنه قد رآه من قبل، لم يحدثه، وإنما نظر إليه نظرة تكلف تشبه نظرة تمثال الحرية ثم مضى، حوَّل "الشيخ محمد" ناظريه عنه، ورنا إلى المدى الرحب، لكنه سرعان ما عاد محدقاً خلف ذلك الشخص الغريب الذي كان كلما مشى مسافة قصيرة عاد لينظر إليه، وكأنه يود التأكد من أنه ما يزال في مكانه، انتابه شعور بالخوف؛ فنهض مسرعاً، وقاد سيارته لاحقاً خلفه، لكنه ما لبث أن اختفى.

تجاهل ما حدث وتناسى كل الهموم والمنغصات؛ كونه لا يود تعكير صفو أيامه المتبقية في "نيويورك"، وحدها "غاردينيا" من تشغل تفكيره، يشعر من خلال نظراتها أنها لن تستطيع مقاومة غصة الشعور بالوحدة، ولوعة الفراق، لن تصمد حين تراه يحمل حقائب سفره، وسينهار تظاهرها بقبول فكرة السفر، وإن فعلت -قسراً- ستظل يدها على قلبها متوجسة في حالة استنفار وتأهب لن يهدأ لها بال حتى يعود، لذلك كان

حريصاً على إقناعها أن سفره خيارٌ إجباريٌّ لا ترفيهي، وأنها – هي نفسها- لن تغفر له لو حدث لأبويه أو أحدهما مكروهٌ قبل أن يراهما، فهي من تطالبه –باستمرار- أن يتواصل بهما ويبرهما، وأن لا يخسر بابيه إلى الجنة، في مفارقة قد تبدو منطقية من وجهة نظرها.

* * *

نهض يوم سفره مبكراً، انسل من سرير نومه وتوجه نحو "المطبخ" لا يود إيقاظ "غاردينيا" يرغب في أن يصنع له كأساً من القهوة اليمنية بنفسه، فتح نافذة المطبخ؛ فتسلل نسيم الصباح يدغدغ وجهه، ويغسل أشجانه، وأرخت الشمس ضفائرها بخجلٍ على زخات مطرٍ خفيفة، مد يده لإحضار الدلة فأمسكت بها "غاردينيا" قائلة: لن يصنع قهوتك سواي.

– لماذا صحوتِ الآن؟! لا زال الوقت مبكراً، عودي إلى سريرك، سأصنع لي كأساً من القهوة وأذهب.

– سأصنع قهوتك بيدي، وأعد لك إفطاراً لن أدعك تذهب حتى تتناوله.

– ستفقدين نومك.

- لا أنام منذ قررت السفر، وهل ينام من سيفارق حبيبه؟! توجسي من أن يصيبك مكروهٌ في اليمن أفقدني النوم تماماً، لا أدري لماذا أنا خائفة عليك من هذه السفرية؟!

- ما عهدتك إلا تشدين من أزري، وتحفزيني لإنجاز كل أعمالي، فلماذا تقوضي معنوياتي هذه المرة..؟

- لا أستطيع العيش دونك كما لا أود أن أكون سبباً في حرمان والديك منك، أنا بين نارين يا "محمد"، أتلظى بسعير تفكيري الدائم، حين يصفعني توجسي أنفجر في نشيجٍ طويلٍ مثل: سيلٍ من نار، نشيج أخنقه مخافة منك، فيستحيل شهقات عميقة تصادر النوم من عيني.

- أُقدِّر مشاعرك ووضعك الذي أنت فيه، لكن أرجوك ساعديني؛ لأكون سعيداً في سفري، وأعدُكِ لن أمكث طويلاً هناك.

رمقته طويلاً، لاحقت عينيه المرتبكتين بنظرات حزينة؛ فشرد ببصره في زوايا المطبخ.. في الصليب الموضوع على رواية "عالم صوفي" الملقاة على أريكة الصالة.. في خيوط الشمس التي ترسم ابتسامة شاحبة على الجدار، سحبت جسدها إلى الخلف، اتكأت على رفوف المطبخ، وهي تتأمل عينيه بصمتٍ، تقدم نحوها، مد يديه واحتوى جسدها المرتعش، ثم خفض رأسه ببطء وهوى بشفتيه فوق رمشيها يقبل عينيها، ويزيح

الـدموع التـي تترقـرق في محاجرهـا، ثـم رفـع رأسـها وأصـابعه تتخلـل شعرها، قائلاً: لا تدعي شيئاً يطفئ ابتسامتك فهي سر سعادتي والضوء الذي ينير أعماقي الكسيفة.

قالت: سافر وسأشعل أصابع روحي مصابيح تضيء دروبك، لكن لن أدعك تصادر أنفاسي مرة أخرى.

طلبت منه بإيماءة دلالٍ انبعثت منها نسمة أنثوية غاية في الرقة أن يذهب؛ ليرتدي ثيابه ريثما تصنع له القهوة وتعد له إفطاره، ثم عرضت عليه أن يدعو أصدقاءه ومن يحب على الغداء فسوف تعد له مأدبة تليق به.

استحسن الفكرة قائلاً: نادي على زوجة "محسن" لتساعدك.

فأجابته: لا تقلق، سأتكفل بالمهمة وحدي، وأعد لكم كل الأطباق اليمنية التي تحبونها.

* * *

خرج مسرعاً بعد أن طبع قبلة على جبينها، وظل يسير راجلاً نحو سيارته التي أوقفها في موقفٍ عام أسفل الشارع، جاءت سيارة مسرعة من خلفه ومرت فوق حفرة في الشارع تجمعت فيها المياه؛ فتطاير المـاء

عليه حتى اتسخت ثيابه، نظر إلى السيارة غاضباً، لكنها ما لبثت أن اختفت، ركل الأسفلت بقدمه، وعاد إلى البيت؛ ليستبدل ملابسه.. حين خرج من باب العمارة وجد سيارة تشبه تلك التي ألقت الماء عليه تقف بالجهة المقابلة للعمارة وبداخلها شخص يدير وجهه نحو مقعد الراكب ويقلِّب أوراقاً وملفات، ظل محتاراً هل يذهب إليه؛ ليوبخه على فعلته أو يتركه ويذهب إلى عمله؟! لم يكن متأكداً أنها السيارة ذاتها أم لا، لم يتمكن حينها من التقاط رقمها أو حتى نوعها، كون الماء - أيضاً - وقع على وجهه، كل ما استطاع معرفته هو أن لونها أسود، وأنها سيارة صغيرة، ظل في مكانه محتاراً لبعض الوقت، وعينه على السيارة يشاهد الرجل، وهو منهمك على أوراقه؛ ليقرر أخيراً أن يتركه وشأنه، وصل إلى سيارته، أدار محركها وتركها تسخن قليلاً، فيما عيناه ما تزالان ترصدان تلك السيارة التي أمام العمارة، حين بدأ طريقه لمح من المرآة التي أمامه أنها تحركت من مكانها فنزل من سيارته بسرعة ووقف بجانبها مستنداً عليها، أراد أن يفهم ما الذي يحدث، غير أن السيارة اختفت تماماً، ولم يتمكن من معرفة أين ذهبت، قلَّب ناظريه في كل الاتجاهات ثم عاد بسيارته إلى حيث كانت، ولم يرَ شيئاً، كأنها فص ملح وذاب، ساوره الخوف قليلاً لكنه سرعان ما تبدد بعد أن تأكد من خلال مراقبته للمرآة

أن لا أحد يسير خلفه، قال لنفسه: لو أنني بقيت على شكوكي لن أتمكن من مواصلة حياتي، ستستمر الحياة باختياري أو رغماً عن أنفي، صحيح أن ثمة شراً في هذه الحياة لكن ليست كلها، بدا سعيداً وهو يجري مكالمات هاتفية مع أصدقائه يدعوهم للغداء، وفي ذات الوقت ينهي ما تبقى من أعماله قبل السفر، دعاهم كلهم عبر الهاتف، وحده "محسن" من أصر على الذهاب إليه؛ ليدعوه، ومعه كل من يستطيع الحضور من عماله، هاتفته "غاردينيا" طالبةً منه أن يحدد الوقت المناسب للغداء فكل شيء جاهز ومرتب كما يحب، فأكد لها بأن الوقت المحدد للغداء سيكون عقب صلاة العصر كما حدده لمعازيمه، ودَّعته بعاصفة عاتية من مفردات الشوق المثقلة بالعبرات وندى الآهات، اتسعت ابتسامته وغامت عيناه بالعاطفة، وهو يهمس لها بشجنٍ: رائحتك عالقة بأنفاسي.

***

مضى في طريقه ينجز ما تبقى من أعماله، لقد اعتاد الهدوء طيلة حياته، لكنه اليوم يصرخ ويقفز ويتحدث إلى السماء والغيوم والمباني وأعمدة الإنارة والأسفلت كالمجنون، حتى الساعة التي في يده يتوسل عقاربها التهام ما تبقى من الوقت؛ ليسافر.

حان وقت صلاة الظهر وهو في "استايتن آيلند" فأخذ نفسه وذهب

إلى دكانه، قال سيصلي هناك ويرتب ما تبقى من أعماله ثم يعود إلى المنزل؛ لينتظر ضيوفه على الغداء، وصل إلى "دكانه" وبوارج الفرحة تبحر في شواطئ عينيه، بينما كانت السماء ترسل قطرات خفيفة محاولة غسل الخطايا التي تعلق بالأحذية والشمس تجففها في صراعٍ محتدمٍ بين ما تبقى من إيمانيات أصابها العطش، لمع ضوء من السماء ثم ساد المنطقة ظلام دامس، تبدد بعد لحظات، الجزيرة تبتسم لكنها متوجسة وكأنها تترقب مصيراً مؤلماً، كان حينها يمسح عينيه؛ لأنه يرى البنايات تبعد وتقترب، والسحب تسير بتبختر، وتتدلى كأنها معلقة بخيطٍ رفيع، لحظة واحدة فقط هي التي تفصل بين غيمة مضيئة تتخطى عتبات الباب وأخرى قاتمة تسير خلفها.. لحظة واحدة – حقاً – هي التي تفصل بين مشروعين متضادين، أحدهما يشرع نافذة للنور والآخر يغلقها.. لحظة لم نكن نعلمها، لكننا رأيناها تماماً ورأينا حقيقة النظام العالمي الجديد من خلالها، فرح العامل الذي كان خلف "الرجستة" حين رآه يدخل من الباب، وطلب منه راجياً أن يحل محله حتى يذهب إلى دورة المياه، ليست سوى دقائق لم يكد يستقيم فيها حتى هاجمه شخص ملثم بمسدسه مطلقاً النار على رأسه؛ ليسقط مضرجاً بالفاجعة.

***

حين علم "محسن" بالخبر هاتف زوجته على الفور، والتي بدورها أخبرت "غاردينيا" فهرولت مسرعة إلى مسرح الجريمة وهول الصدمة يزلزل تماسكها وثباتها، انكفأت نحو الجسد المضرج بالدماء ثم أخذته إلى صدرها وصرخات موجعة تدوي في المكان، ارتعدت فرائصها وتهالكت أنفاسها بينما كان شريط الذاكرة يستعيد نزف السعادات الماطرة، والدموع تتقاطر من عينيها؛ لتحفر أخاديد على صفحة روحها المهترئة والعارية من أمن يعبر بها الأزمان.. جعلت تتحسس ذاتها المنسية عند مفترق عينيه.. يا ألله، ما هذا القدر الذي لم تكن تعلم بأن خاتمة عشقها لن تكون سوى قبر فاغر فاه لابتلاع فرح روحها الذي لم تكتمل ارتساماته على محياها.. آهات تنطلق من صدرها وزفرات تبحث عن طيف أنفاس يعيد لرئتيها الحياة.. ازداد ضعفها وانزوت ذاتها من أزيز الذكرى الطارق باب الفقد.. وضعت إحدى يديها تحت ظهره الناعم وراحت بالأخرى تعيد تقليب دمائه المهرقة على الأرض.. لقد قتلوا إكليل ابتسامتها وسلبوها أغلى ما تملك، قتلوا حلمها وحالوا دون إتيانها بمعجزاتها، لقد منعوها من النظر إلى أبدية روحها حتى توارت خلف هذا الدم المسفوح الذي يشابه دم المسيح الذي سُفك ظلماً وفيه الخلاص.. سلبها القدر اغلى ما تملك؛ لتقضي بقية حياتها باحثة عن ذاتها

بين تصدعات الذكرى المشوشة والهامسة باشتياق لا يعود.. رصاصة غادرة اخترقت رأسه ونفذت إلى قلبها؛ لتفتح رياح أسى نتنة بترت من حياتها أطراف الفرح إلا من طيف يتتبع أنفاسه الراحلة مع روحه إلى السماء حيث ينتظره المخلص يسوع.

***

قتل "الشيخ محمد"..!

انطفأ ضوء "نيويورك" ومادت أرضها، ارتدت أبراجها السواد وتولاها الأسى، توارت الابتسامة عن الوجوه، وخيم الحزن على المدينة التي بدت شاحبة المعالم، الدموع تلثم وجه تمثال الحرية، والدم يطوق عنقه، اختفى الناس من الشوارع، وعادوا إلى منازلهم يزفرون لظى الغيظ، ليس ثمة أحد سوى دمٍ أهرقته الوشاية، وقطيع من الشرطة يجوبون الأزقة بحثاً عن اليد الآثمة التي انشقت الأرض المضرجة بالدم وابتلعتها..!!

انتهت..

منيف مسعد محمد الهلالي
مواليد ١/١٢/ ١٩٧٨م
اليمن – إب – مديرية الشعر

- بكالوريوس حقوق ودراسات دبلوماسية.
- طالب دراسات عليا في جامعة صنعاء.

- عضو اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين.
- عضو مؤسس لمنتدى مجاز الأدبي الثقافي.
- عضو نادي القصة إلمقه.
- عضو رابطة الأدباء العرب.
- عضو ملتقى الكلمة نغم الأدبي.
- عضو منتدى أنصار الديمقراطية.
- عضو اتحاد الإعلاميين العرب.
- عمل محرراً في عدد من الصحف المحلية، وأجرى حوارات مع عدد من السياسيين والمفكرين في اليمن، وعمل في المكتب الإعلامي لوزير الداخلية الأسبق، وصُحُفيًا للنائب العام.
- رئيس تحرير صحيفة الرأي برس الإلكترونية سابقًا.
- كاتب صحفي وقاص.

له:

- العديد من المقالات والقصص والأبحاث المنشورة في عدد من الصحف والمواقع اليمنية والعربية.
- غيمة تتهجى الأفق- مجموعة قصصية.
- كتاب عن الدبلوماسية اليمنية – مخطوط.
- مجموعة قصصية- مخطوط.

الجمهورية اليمنية – صنعاء – بير عبيد
إيميل: almonef86@yahoo.com
فيس بوك وتويتر: منيف الهلالي